فوائد ندية من السور القرآنية

أديم

فَوَائِدُ نَدِيَّة مِنَ السُّوَرِ القُرْآنِيَّة

أديم

كلمة الدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين
أما بعد؛

فقد اطلعت على نماذج مما كتبَته الأخت الفاضلة "أديم" في كتابها القيّم (فوائد نَدِيَّة من السور القرآنية) فألفيتها فوائد قيمة أحسنت الباحثة كتابتها وصياغتها وانتقاءها، لعلها تكون زادًا علميًّا نافعا، ومغذيا للقلوب في هذا الشهر المبارك، فللقلوب غذاؤها وللأبدان غذاؤها، وخير الغذاء غذاء القلوب الرباني

أسأل الله أن ينفع بما كتبَت الباحثة، وأن يجعله في ميزان أعمالها، والله ولي التوفيق

و كتبه
أ. د/ فهد بن عبد الرحمن الرومي
أستاذ الدراسات القرآنية
جامعة الملك سعود.

٢٥/ ٨/ ١٤٤١ ه

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن تدبر القرآن العظيم من أعظم مقاصد إنزاله،إذ هو بوابة العمل به ؛ وبه تحيى القلوب وتنير العقول، وبه يتحقق الاعتبار فتستقيم نفوس البشر، قال الله تعالى: **(كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) [ص: (٢٩)].** فمن لا يتدبر القرآن لا ينتفع بما فيه من عظائم المعاني وأنوار الهدايات، وسرعان ما تعصف به الشهوات أو تتلقفه الشبهات -ولو كان مقيمًا لحروفه-، ذلك أنه غطى الجوهر الرديء بالقشرة الثمينة، وطلى الوجه القبيح بأجمل أنواع الزينة، وأورد النور المبين على بيت بابه موصَد، فلم يغيِّر الغطاء والطلاء من حقيقته، ولم يبدد النور ظلام بيته لما حجبته الأقفال، قال الله تعالى: **(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) [محمد: (42)].**

ولما أهلَّنا شهر رمضان المبارك للسنة الفارطة، رأيت أن من أعظم المغانم التي أغتنم بها الشهر الذي أنزِلَ فيه القرآن، هو أن أجمع عزمي على تدبر معانيه، والريِّ من غيثه. ولما كان القرآن كريمًا، لم يحرمني الله سبحانه فيوض كرمه، وفتح علي بفوائد نَدِيَّة كانت بلسمًا لصدوع قلبي، ومعينا على أجادب القسوة فيه. وقفت فيها مع آيات أو بعض آيات من سور القرآن العظيم كلها بحيث ما من سورة إلا ووقفت ولو على فائدة واحدة منها، وانتخبت في بعضها أقوالًا لأعلام المفسرين مع ذكر أسمائهم وتحديد كلامهم، ومصادرها في تفاسيرهم المشهورة ميسَّرة، وصُغتُ الأكثر منها بتعبيري. وكنتُ أكتبها مفرَّقة، فلما انتهيت إلى سورة الناس واقترب شهر رمضان، رأيت أن أجمعها في موضع واحد، لأرجع إليها بين حين وآخر فيتجدد أثرها في قلبي، وأنشرها مجموعةً لعل الله سبحانه ينفع بها أحدًا من المسلمين.

أسأل الله أن ينوِّر قلوبنا بأنوار القرآن، وأن يفيض علينا من حِكَمِه وبركاته ويجعلنا من أهله، وأن يشفعه فينا ويرفعنا به عنده درجات..

أدهم

الخميس ٩ شعبان ١٤٤١هـ

2 أبريل 2020م

الفاتحة

١- (الْحَمْدُ لِلَّـهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾)

يقول شهاب الدين الآلوسي: «الذي يحمده الناس ويعظمونه إنما يكون حمده وتعظيمه لأحد أمور أربعة: إما لكونه كاملا في ذاته وصفاته وإن لم يكن منه إحسان إليهم، وإما لكونه محسنا إليهم ومتفضلا عليهم، وإما لأنهم يرجون لطفه وإحسانه في الاستقبال، وإما لأنهم يخافون من كمال قدرته.فهذه هي الجهات الموجبة للحمد والتعظيم.

فكأنه سبحانه يقول يا عبادي إن كنتم تحمدون وتعظمون للكمال الذاتي والصفاتي فاحمدوني فإني أنا الله، وإن كان للإحسان والتربية والانعام فإني أنا رب العالمين، وإن كان للرجاء والطمع في المستقبل فإني أنا الرحمن الرحيم، وإن كان للخوف فإني أنا مالك يوم الدين» اهـ

٢- (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾)

مهما بلغ الإنسان من المعرفة والفضل فإنه لا يستغني عن طلب الهداية من الله.. هداية يُدَلّ بها على الخير، وهداية يُوفَّق بها إلى اغتنامه.

ومما يدل على شدة حاجة العباد إلى الهداية، أن الله جعل الدعاء بها واجبا في كل ركعة من ركعات الصلاة، فأنت تسأل الله الهداية سبع عشرة مرة في اليوم والليلة على أقل تقدير، فاجعله سؤال مفتقر راج محب، لأغنى مسؤول وأكرم مجيب.

البقرة

٣- (.. خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ .. ﴿٣٦﴾)

هذا شأن الأمور الجليلة دومًا، لا يناسبها التخاذل والتواني. وأنت لا تأخذ الشيء بقوة إلا إذا كنت تعلم مدى نفعه لك، وأنت لا تأخذ الشيء بقوة إلا وأنت تدرك قدر معطيه، وأنت لا تأخذ الشيء بقوة إلا وأنت تعي أنك إن ضيعته فلن تجد مثيلا له بله وجود ما هو أفضل منه.. وإن الوحي هو أجلّ الأمور قاطبة، فلزمت مقابلته بالجد والعزم؛ إذ ليس في الوجود ما هو أنفع في الدنيا والآخرة من اتباعه، ولا أعلى قدرا من معطيه وهو الله سبحانه، ولا أكثر خسارة من تضييعه. فخُذ ما آتاك الله بقوة.. قوة تدفعك إلى الخير، وتلجمك عن الشر.

٤- (ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٦﴾)

لقد تولوا بعد أخذ الميثاق عليهم، لكن الله لم يهلكهم مع قدرته على ذلك، وهم يعلمون أنه أهلك الذين اعتدوا منهم في السبت.. فيا بؤس من ضيّع فرص الإمهال!

كم من عهد عقدته مع الله ثم نكثتَ فما عذبك!.. كم من نعمة أحدثها لك فقابلتها بإحداث الذنوب وما سلبها!.. وكم من يوم أسرفت فيه فلم يقبضك!.. أمهلنا الله بفضله ورحمته.. أمهلنا لنتوب، لنحسن، لكيلا نكون من الخاسرين.

٥- (بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّـهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّـهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾)

لقد كان بنو إسرائيل ينتظرون خروج الرسول منهم ليتبعوه، فلما خرج من العرب كفروا به.. وهذه مشكلة خطيرة: أن تريد اتباع الحق، ولكن بشروطك ووفق هواك.. تريده عندما تكون أنت مصدره وزعيمه، وليس عندما يكون مع أحد غيرك.. تريد أن تكون متبوعا وتستكبر أن تكون تابعا.. ومن هذه حاله ليس مريدا للحق في الواقع، وإنما يحركه تقديس أناه.. فنعوذ بالله من هذه الآفة.

التجرد للحق عزيز، وجميعنا بشر خطّاء، والسعيد من أدام المجاهدة.

٦- (وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ... ﴿٥٩١﴾)

المقاييس عند الله مختلفة، فالهلاك الحقيقي ليس فقدانك شيئا من الدنيا، ولكنه تقاعدك عن عبادة الله؛ لأن الدنيا كلها فانية، ستتركها أو تتركك عاجلا أو آجلا، وما قدمته لنفسك عند الله من الطاعات هو ما يبقى لك، وهو حقا ما ينجيك.

٧- (سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ... ﴿١١٢﴾)

أحيانا لا يكون العيب في الحجة، ولكن في عين الرائي.. فكيف يمكن أن تهدي شخصا أعمى إلى نور الشمس؟

هكذا لم يؤمنوا.. ليس لقلة الحجج، ولا لقصور في بيانها.. وإنما لفساد البصائر وسوء الطوية.. فاللهم بصّرنا بالحق وارزقنا اتباعه، ولا تجعله ملتبسا علينا فنضلّ.

٨- (... وَلَوْ شَاءَ اللَّـهُ لَأَعْنَتَكُمْ ... ﴿٢٢٠﴾)

من تأمل سورة البقرة من أولها إلى آخرها، تبين له أن أمة الإسلام أمة مرحومة، قد تفضل الله عليها ويسّر دينها، ولم يلبسها ثوب العنت..

فمن قارن حال هذه الأمة بحال بني إسرائيل المذكورة في السورة، وكيف أنهم شقوا على أنفسهم فكانت في شريعتهم من المشقة ما جعل أمرا من أوامر الله ليتوب عليهم من عبادة العجل أن يقتلوا أنفسهم.. وكيف أنهم حين عصوا شدد الله عليهم العقوبة فرفع فوقهم الطور.. وكيف أنه ابتلى بعضهم بألا يشربوا من نهر وهم عطشى إلا غرفة.. إلى غير ذلك من صور البلاء.. عرف أن هذه الأمة أمة مرحومة..

ومن تدبر تشريعات الله في هذه السورة، من تخفيف في أحكام الصوم، وتشريع الفدية للمريض في الحج، وإباحة التجارة فيه، ورفع الإثم عمن تعجل في يومين أو تأخر، وإباحة مخالطة اليتامى في الأموال، وعدم المؤاخذة باللغو في الأيمان، وجعل الطلاق مرتين، وإباحة التعريض للمعتدة بالخطبة، إلى غير ذلك من التشريعات.. علم حقا أن هذه الأمة أمة مرحومة..

ومن تأمل مضاعفة أجر الصدقة، والأمر بالترفق مع الفقراء، والنهي عن المن والأذى، والأمر بإنظار المعسر.. تبين له أن هذه الأمة أمة مرحومة..

ومن نظر في تثبيت الله للمؤمنين من هذه الأمة ببيان حقد الكافرين عليهم، وحسد كثير من أهل الكتاب لهم، وذكر خصوصيتهم برحمة الله، وأنه ما ينسخ من آية أو ينسها إلا أتى بخير منها أو مثلها، ورأفته بهم فيما حرم عليهم من الخمر والميسر بإيضاح أن إثمهما أكبر من نفعهما، وتفهيمهم أن في القتال جانبا من الخير قد يخفى عليهم، وتذكيرهم بقربه من السائلين، وبأنه يعلمهم، وبأنه غفور حليم، واسع عليم.. عرف كذلك أن هذه أمة مرحومة..

ثم ختمت هذه السورة بآيات من أعظم آيات التيسير في القرآن، بما فيها من رفع للمشقة وإشادة بسمع المؤمنين وطاعتهم لأمر الله، ومن تقرير حقيقة كونية كبرى هي من أعمق ما يعين المؤمن على كدر الدنيا ومصاعبها، ويدفعه للعمل الصالح :أن الله سبحانه لا يكلف نفسا إلا وسعها ...

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّـهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٥٨٢﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّـهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨٢﴾)

وكأن في ختم السورة بهذه الآيات إشعارا بكل معاني الرحمة بأمة الإسلام المذكورة فيها، وصرفا للأذهان عما قد تتوهمه من فرض الله على عباده شيئا لا يطيقونه.. فما أعظمه من ختام!

تذكرني كل هذه المعاني بما رواه الإمام البخاري رحمه الله:

عن سالم بن عبد الله عن أبيه أنه أخبره أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أوتي أهل التوراة التوراة فعملوا حتى إذا انتصف النهار عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا، ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا، ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قيراطين قيراطين.. فقال أهل الكتابين: أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطيتنا قيراطا قيراطا، ونحن كنا أكثر عملا.. قال: قال الله عز وجل: «هل ظلمتكم من أجركم من شيء؟» قالوا: لا، قال: «فهو فضلي أوتيه من أشاء»..)

فالحمدلله على كل فضل وتيسير.. الحمدلله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.. ونسأل الله أن يعيننا على شكر نعمه، وأن يعيذنا من السلب بعد العطاء.

آل عمران

٩- (إِنَّ اللَّـهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾)

كل همومك المتراكمة، كل انكساراتك الداخلية، كل رعدة خدٍّ لم يشعر بها أحد حين قلقتَ، كل إحسان بذلته فما جنيت إلا الجحود، وكل أمنية بعيدة أودعتها صدرَك.. لا يخفى على الله من ذلك شيء..

وكذا كل ذنوب خلواتك، كل عهودك المنقوضة، كل ظن سيء أسررته، كل ظلم لعباد الله اقترفته، وكل تحايل على الذنب ألبسته ثوب الضرورة.. لا يخفى على الله من ذلك شيء..

فانظر ما أبلغ هذه الآية، كيف تجمع في قلبك الخوف والرجاء!

١٠- (وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾)

إحدى ألاعيب أعداء الدين للصد عنه، لكنها فعلا في غاية العجَب..

يقول قتادة: « فإنه أجدر أن يصدّقوكم، ويعلموا أنكم قد رأيتم فيهم ما تكرهون، وهو أجدَرُ أن يرجعوا عن دينهم.»

ويقول السدي: «لعلهم يشكّون، يقولون: هؤلاء كانوا معنا أوّل النهار، فما بالهم؟، فأخبر الله رسوله بذلك» اهـ

فمن يُظهر لك الأخوة والرضى بما أنت عليه ثم ينقلب عنه، سيجعلك تتساءل عن السبب ليجيبك بما يصدك عن دينك، ويدعوك إلى «إعادة التفكير» بخلفية يوهمك أنها بيضاء بينما هو في الحقيقة قد طلاها بتلبيسه وخبثه..

لكن الله سبحانه وتعالى أخبرك بهذه المؤامرة، وأشار إلى معتقد من يريدون خداعك ودوافعهم حتى تحذر أنت. إنهم لا يؤمنون حقا إلا لمن تبع دينهم، ولا يفعلون ذلك إلا نكاية بك، وحقدا لسبقك إياهم بالهدى والخير.. وما دروا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، وأن محاربتهم النور الذي تحمله أياد غير أيديهم لا تضر النور ولا حامليه بينما تبقيهم هم في ظلمة!..

هذه الخدعة تتكرر في أيامنا هذه بكل أسف، يفريها بعض دعاة «البحث عن الحقيقة» من سائر أعداء الدين، ببث الشبهات بين الناس وتشكيك المسلمين في دينهم، بعد مزاعم أنهم قرأوا القرآن وحفظوا كتب السنة!.. ولا حول ولا قوة إلا بالله. فيا معشر المسلمين، لا تنطلين عليكم الألعوبة!

١١- (... لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ... ﴿١٢٨﴾)

تحديد مصائر الناس ليس من شأننا، فما نحن جميعا إلا عبيد فقراء ضعفاء لله الغني القوي، وإذا كان الله سبحانه قد خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الآية وهو أكرم الخلق عنده، فإننا أجدر أن ننتبه لهذا المعنى.. إياك أن تنصّب نفسك حاكما على مستقبل الناس، فإنك لا تملك لنفسك نفعا ولا ضرا فضلا عن أن تملك ذلك لغيرك.. تذكر دوما أن الله هو الملك الذي له كل شيء، وأنك المملوك الذي ليس له من الأمر شيء.

١٢- (... وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ... ﴿١٥٢﴾)

كم ساق الله إلينا من بشريات نحبها، فتعجلنا الثمرة، وذهلنا عن الأمر، فعصينا وضيعنا البشائر، وليس بهذا تُشكر النعم..

على المرء أن يجدد عزمه مع كل جديد وافد عليه، إن كان أمرا يحبه عزم على الثبات شاكرا، وإن كان أمرا يكرهه عزم على الثبات صابرا.

١٣- (... لَتُبْلَوُنَّ ... ﴿١٨٦﴾)

هذه إحدى الحقائق الكبرى التي تضمنتها سورة آل عمران وأكدت ثبوتها؛ فمن تأمل مقصد التمحيص وابتلاء ما في الصدور، وكيف أننا لن ندخل الجنة حتى يعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين، وكيف أن الله ما كان ليذر المؤمنين حتى يميز الخبيث من الطيب، عرف ثبوت حقيقة الابتلاء، وأن المؤمنين لن يعيشوا حياتهم في صفاء تام، وأنه لابد من خوض الاختبار..

ومن تأمل ذكر تزيين الشهوات للناس في أول السورة، ثم شبهات أهل الكتاب وأباطيلهم، وذكر صنوف الفتن التي تعرض لها المؤمنون من فتنة القتال، والموت، وحظوظ الدنيا، وتثبيط المنافقين، والحرمان من المغنم، وإشاعة قتل الرسول، وأذى المشركين، .. عرف أن الأمر جد، وأن الابتلاء حق..

وربما لهذا السبب تعددت صور تثبيت الله للمؤمنين على مدار هذه السورة العظيمة.. وأذكر من أهمها:

- الإرشاد إلى الذكر واللجوء إلى الله، فمن بدايات السورة ونحن ندعوا "ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا"، ثم نسمع مناجاة المتقين الفائزين بما هو خير من شهوات الدنيا "ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار"، ونتأمل أثر دعاء زكريا عليه السلام في إمداده بالولد على نحو ليس معهودا في حياة الناس، ونقف في وجل واقتداء بمن سبقونا من الصالحين وهم يقولون في احتساب «ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين».. ثم نقول مع من قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم «حسبنا الله ونعم الوكيل».. واللجوء لله سبحانه من أعظم وسائل الثبات عند المحن.

- ذكر أخبار السابقين، فمن طبيعة البشر أنهم يتأسون ويتسلون بما يحدث لغيرهم، ولهذا يرشدنا الله سبحانه إلى ما خلا من قبلنا من سنن، ويدعونا إلى التأمل في عاقبة المكذبين، ويخبرنا عمن سبقونا من الصالحين الذين أصيبوا في سبيل الله فما وهنوا..، وما ضعفوا، وما استكانوا.. وإنما صبروا ولنا فيهم أسوة.

- معايشة مشاهد الآخرة، فكل شيء مكتوب من خير وسوء، وجزاء المسارعين للخير جنة عرضها السماوات والأرض، والنار مثوى الظالمين، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وكل نفس ذائقة الموت، والأجور توفى يوم القيامة، والله عنده حسن المآب، وما عند الله خير للأبرار.. فمن عرف أن الدنيا زائلة وأن الآخرة باقية، هان عليه البلاء فثبت.

- المفاصلة في الحديث عن أهل الكتاب، وبيان تلبيسهم وصدهم عن سبيل الله وجدالهم فيما ليس لهم به علم، وذكر افتراء النصارى، وبيان القصص الحق، بالتأكيد الدائم على مركزية التوحيد وأن عليه مدار كل شيء، مما ينير طريق المؤمنين ويبصرهم بحقائق الأمور فيثبتوا على ما هم عليه من الحق.

- ذكر بعض دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، كما في قوله تعالى "قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم" وقد نزلت في اليهود وتحققت بقتل بني قريظة إجلاء بني النضير وفتح خيبر كما ذكر البيضاوي رحمه الله، وكما في قوله تعالى "ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون" وقد ذكرها البيهقي رحمه الله في دلائل النبوة، وكما في قوله تعالى "ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون" وفيها يقول الطبري رحمه الله: (ثم أخبر تعالى ذكره نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أنه أوحى ذلك إليه، حجةً على نبوته، وتحقيقًا لصدقه، وقطعًا منه به عذرَ منكري رسالته من كفار أهل الكتابين، الذين يعلمون أنّ محمدًا لم يصل إلى علم هذه الأنباء مع خفائها، ولم يدرك معرفتها مع خُمولها عند أهلها، إلا بإعلام الله ذلك إياه. إذ كان معلومًا عندهم أنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم أميٌّ لا يكتب فيقرأ الكتب، فيصل إلى علم ذلك من قِبَل الكتب، ولا صاحبَ أهل الكتُب فيأخذ علمه من قِبَلهم.) اهـ، ولا شك أن في ذكر هذه الدلائل ما يثبت المؤمنين.

- مواساة المؤمنين وتبشيرهم بعفو الله عنهم، والتأكيد على خيريتهم وعلوهم بالإيمان وإقامة شرائع الله، وإيصائهم بالاعتصام بحبله وعدم التفرق.. والتأكيد على سفول الكافرين وخسرانهم، وعلى أنهم سيُغلبون، وعلى أن نفقتهم لمحاربة الدين ستعود عليهم وبالا، وعلى أن مأواهم جهنم وبئس المهاد.. وذلك كله رغم ما حل بالمؤمنين من مشاق وفتن..

فمن أراد أن يثبت عند البلاء فليتأمل هذه السورة العظيمة، وليعتبر بما فيها من تثبيت الله لعباده المؤمنين، وليحرص على الفوز بما فيها من حب الله للصابرين، وإخباره بأن الصبر مع التقوى من عزم الأمور، وليعلم أن المعركة لم تنته بعد.. وأننا سنظل نبتلى ما حيينا، فـ»يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون».

والله أعلم.

١٤- (... آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ... ﴿١١﴾)

حقيقة لابد أن ينطلق منها الأبوان لتحقيق العدل بين الأبناء، فالابن الذي تظلم إخوته بسببه قد يعقك، والابن الذي تظلمه بسبب إخوته قد يكون بارا بك.. والإنصاف كله في اتباع أمر الله ولزوم شرعته، لأن الله عليم بما خفي عليك، حكيم في أمره إليك.

١٥- (... إِنَّ اللَّـهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾)

كانت هذه خاتمة آية القوامة، يقول القاسمي رحمه الله معلقا عليها:-

"إن الله كان عليا كبيرا؛ فاحذروه. تهديد للأزواج على ظلم النسوان من غير سبب، فإنهن - وإن ضعفن عن دفع ظلمكم، وعجزن عن الانتصاف منكم - فالله سبحانه علي قاهر كبير قادر، ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن، فلا تغتروا بكونكم أعلى يدا منهن وأكبر درجة منهن، فإن الله أعلى منكم وأقدر منكم عليهن، فختم الآية بهذين الاسمين فيه تمام المناسبة" اهـ

١٦- (لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّـهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾)

ليس لأحد من الخلق عند الله عهد، ولا بينه سبحانه وبين أحد منهم نسَب، ولا وزن عنده إلا للحسنة والسيئة.. لا نسَبك ينفعك، ولا جمالك، ولا جاهك، ولا مالك، ولا أي شيء إن لم تقدم عملا صالحا.. عملك زادك، وما سواه فهو من الأماني، والأماني رأس مال المفلسين!

١٧- (... وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّـهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾)

يقول ابن جزي رحمه الله: «معناه أن الشح جُعل حاضرا مع النفوس لا يغيب عنها لأنها جُبلت عليه.

والشح هو ألا يسمح الإنسان لغيره بشيء من حظوظ نفسه.» اهـ

قلتُ: وهذه الصفة كغيرها مما جُبلت النفوس عليه يتفاوت الناس فيها، فمنهم من تغلب عليه ومنهم من تخفى فيه على من نظر إليه.. ومن رحمة الله بنا أنه لم يكلفنا انتزاعها، وإنما كلفنا اتقائها، ولهذا ذُكر في تفسير قول الله سبحانه (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) أن الشح في هذا الموضع هو أكل أموال الناس بالباطل، وكان من بديع كلام ابن زيد رحمه الله أنه قال في هذه الآية: (من لم يأخذ شيئًا لشيء نهاه الله عزّ وجلّ عنه، ولم يدعه الشحّ على أن يمنع شيئًا من شيء أمره الله به، فقد وقاه الله شحّ نفسه، فهو من المفلحين.) اهـ

أي: من لم يدعه الشح إلى فعل المحرم أو ترك الواجب.. وأما ما دون ذلك فهو محل التفاوت بين الناس، وهو قبيح، كما ذكر الطبري رحمه الله في تفسيره أن رجلا قال لابن مسعود رضي الله عنه: (إني أخاف أن أكون قد هلكت، قال: وما ذاك؟ قال: أسمع الله يقول: (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ) وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء، قال: ليس ذاك بالشحّ الذي ذكر الله في القرآن، إنما الشحّ أن تأكل مال أخيك ظلمًا، ذلك البخل، وبئس الشيء البخل!) اهـ

فبئس الشيء البخل.. ومجاهدة النفس في ذلك من الفضائل، وللناس بين الأبيض والأسود درجات لا تعد من الألوان الرمادية.. ونسأل الله ألا يحرمنا حلية الكرم وشيم أهله.

والله أعلم.

١٨- (... وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّـهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٤١﴾)

يأتي الأمر بذكر الله في القرآن مقرونا بالكثرة في مواضع متعددة، (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا)، (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات)، (وذَكر الله كثيرا)، (وذَكروا الله كثيرا)..

وحين ذم الله المنافقين قال: (ولا يذكرون الله إلا قليلا)

١٩- (... قُلِ اللَّـهُ يُفْتِيكُمْ ... ﴿٦٧١﴾)

يقول ابن عاشور رحمه الله: (وعد باستيفاء الإجابة عن الاستفتاء، وهو ضرب من تبشير السائل المتحير بأنه قد وجد طلبته، وذلك مثل قولهم: على الخبير سقطت... وتقديم اسم الجلالة للتنويه بشأن هذه الفتيا) اهـ

في سورة النساء، الله هو من يفتينا.. فما أشرف هذه الفتيا..

وأنت إذا تأملت الأحكام المبثوثة في هذه السورة وجدت كثيرا منها في حق الضعفاء الذين يرفض المجتمع المادي أن يسمع لهم صوتا..

- فمن يهتم بإيتاء اليتامى أموالهم على نحو وافٍ؟ الله سبحانه يذكرهم في كتابه ويتوعد من يأكلون أموالهم ظلما بأنهم إنما يأكلون في بطونهم نارا.. ويخبرهم بأنه رقيب على كل شيء، وبأنه حسيب.. وكفى بالله حسيبا..

- تلك المرأة اليتيمة التي نشأت فوجدت نفسها في رعاية رجل هو وليها، وهو وارثها إذا ماتت، ثم أراد هذا الرجل أن يتزوجها لسبب ما.. ربما لأنها تعجبه فعلا، وربما لأنه طامع بها ولا يريدها أن تتزوج من رجل آخر فيشاركه في المال الذي تعب في إدارته وصيانته.. أو لأي سبب..

من يهتم إذا كان هذا الرجل سيعطيها صداقا أو لا؟ ومن يهتم بطيب نفسها عندما تعطيه من مالها ليحل له؟

ثم من يهتم بأنه إذا تزوجها فقد يأخذ من مالها ظلما ولا يعدل؟.. الله يذكر ذلك في كتابه ويقول لهؤلاء الرجال «وإن خفتم» ألا تعدلوا في أمر هذه اليتيمة فتزوجوا غيرها كي لا تأثموا..

- ثم تلك المرأة اليتيمة إذا لم يكن لهذا الرجل رغبة في أن يتزوجها، من يهتم بكونه يصرف عنها الخاطبين ليستأثر بالمال فيحرّم عليه ذلك؟

- وتلك المرأة التي لا يريد زوجها البقاء معها، وفي نفس الوقت يرفض تطليقها فيضيق عليها حتى تتنازل له عن حقوقها ظلما واضطهادا، من يهتم بنهيه عن هذا التحايل ويصفه بأنه بهتان وإثم مبين؟ ويأمره أن يعاشرها بالمعروف، ويرشده إلى الصبر إن بدا له منها ما يكره؟

- وذلك الرجل الذي يميل عن امرأته فيتركها كالوقف، لا هو يرضيها ولا هو يطلقها فيحررها، من ينهاه عن ذلك؟

من يرى للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان حقا في أن يقاتَل من أجلهم؟ وفي أن يُعذروا فيما لا يُعذر فيه غيرهم؟

يذكر الله في كتابه ذلك كله، ويعلمنا في هذه السورة العظيمة أن القوي يحرم عليه أن يأكل الضعيف، وأن الضعيف إذا كان «عالة» أو «يدا معطلة عن الإنتاج» في ثقافة ما؛ فإنه في حكم الله ذو حق يجب أن يُوفى، وأن آكل حقه ظالم آثم.. وأنه إذا غفل عنه الخلق ولم يسمع صوته أحد، فإن الله ليس بغافل عنه، وإنما يبين حقه ويفتي في أمره..

في هذه السورة يبين الله لنا ويهدينا، فيفرض علينا في الميراث أحكاما، ويحررنا من ربقة التنافس والصراع فينهانا أن نتمنى ما فضل الله فيه بعضنا على بعض، ويرشدنا إلى فسحة فضله لنسأله..

فيها يعظنا الله بأمره إيانا بتأدية الأمانة، ويأمرنا بالعدل في الأحكام والشهادات، ويحذرنا من التهاون في إهلاك الناس طمعا في عرَض دنيوي، فيوجهنا إلى كثرة ما عنده من مغانم إن اتقيناه..

فيها يعظم الله في نفوسنا معنى القول المعروف، والمعاشرة بالمعروف، والأمر بالمعروف، والإصلاح بين الناس.. يحبب إلينا الإحسان، كما ينهانا عن الظلم والبهتان..

فيها يرشدنا الله إلى ضرورة العمل، وأنه سبيل النجاة أو الخسارة، وأن من يقطعه الموت عن إتمام عمله الصالح فسيبلغه بنيته الصادقة، ويبين لنا أن الناس درجات، ويدعونا إلى الجهاد في سبيله، ويعرّفنا فضل المجاهدين وخسارة القاعدين..

فيها يأمرنا بتجديد الإيمان، وينبهنا إلى ضرورة الاحتكام إلى شرعه، والتسليم لأمره، ويعلّمنا كيف نحذر الأعداء، ويذكرنا أن الولاء الأول لله، وينهانا عن موالاة الكافرين، ويكشف لنا خبايا المنافقين، ويرشدنا دوما إلى أن التوبة تستثني أهلها من الوعيد..

فيها يستنكر ألا يتدبر الناس القرآن، ويخبر أنه نور مبين..

وفيها نرى كيف أن الإنسان ضعيف، وكيف أن الله سبحانه رحيم بنا، لن يعذبنا إن شكرنا وآمنا.. إنه يريد أن يتوب علينا.. ويريد أن يخفف عنا.. فيها يبين الله لنا كي لا نضل، فإنه بكل شيء عليم!

لكن من العجب أن أناسا لا يعرفون من سورة النساء سوى ما وافق الأهواء،

ثمة رجل أرعن لا يعرف منها سوى آية التعدد، فيذل زوجته بالتهديد في كل ذهاب ومجيء، كما يعرف آية القوامة فلا تُرى امرأته إلا بكدمة في ذراعها أو ورم في عينها جراء مزاح لطيف..

وثمة امرأة غافلة لا تعرف منها سوى أنها مظلومة في الميراث وأن الإسلام يحتقر الإناث..

ذلك مبلغهم من العلم، فهل من أذن تصغي لقول الحق:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (٤٧١) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٥٧١)) !

المائدة

٢٠- (... قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّـهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ... ﴿٧١﴾)

سبحان الملك الحي القيوم.. اللهم نعوذ برضاك من سخطك!

يقول الطبري رحمه الله:

"ففي ذلك لكم معتَبرٌ إن اعتبرتم، وحجة عليكم إن عقلتم: في أن المسيح، بَشَر كسائر بني آدم، وأن الله عز وجل هو الذي لا يغلب ولا يقهر ولا يردُّ له أمر، بل هو الحيُّ الدائم القيُّوم الذي يحيي ويميت، وينشئ ويفني، وهو حي لا يموت." اهـ

٢١- (قَالَ اللَّـهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ... ﴿١١٩﴾)

في هذا اليوم تسقط كل أقنعة الكذب والبهتان، وتنكشف الحقائق للعيان.. لن ينفع المال أهله، ولن ينفع السلطان أهله، ولن ينفع النسَب أهله.. لكن الصدق سينفع أهله.. أولئك الذين كانوا في الدنيا مثل نبع صافٍ، لم تلوثهم أدران الكذب، تصدّق أقوالهم ما في قلوبهم، وتصدّق أعمالهم ما تقوله ألسنتهم.. اللهم اجعلنا منهم يا جواد يا كريم!

الأنعام

٢٢- (... قُل إِنَّ اللَّـهَ قادِرٌ عَلى أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلـكِنَّ أَكثَرَهُم لا يَعلَمونَ ﴿٣٧﴾)

الله قادر على أن ينزّل آية، ومع ذلك لم ينزلها!

لأفعال الله سبحانه وتعالى متعلقات كثيرة لا تنفك عن بعضها.. فقدرته غير المحدودة لا تنفك عن رحمته، ورحمته لا تنفك عن حكمته، وحكمته لا تنفك عن عدله وسائر صفات كماله.. والنظر لصفة من صفاته دون اعتبار غيرها قصور في العلم.

وأنت إذا فهمت هذا المعنى، انحلَّ في قلبك كثير من عُقد الاشتباه.. فتنبّه!..

٢٣- (فَلَولا إِذ جاءَهُم بَأسُنا تَضَرَّعوا ... ﴿٤٣﴾)

الشدائد من أعظم مواطن التوبة، وإظهار الافتقار والتذلل لله.. مغبون من اقتصر في شدته على الشكوى للناس، أو النياحة على ما فات، فتناسى ما اقترف وما تاب.. الشدة هي أذان الضراعة في محراب روحك، فلا تحرم قلبك من السجود الطويل على عتبة العفو الغفور.. الكريم الوهاب.

٢٤- (وَتِلكَ حُجَّتُنا آتَيناها إِبراهيمَ عَلى قَومِهِ ... ﴿٨٣﴾)

لم يقطع الخليل حجة قومه بشيء من عند نفسه؛ إنها حجة الله.. وهو من وفقه لها وأعطاه إياها..

كل نصر للحق جرى على لسانك فالله هو من أجراه، كل كلمة طيبة كتبتها فانتفع بها إنسان فالله هو من وفقك لها.. ولولاه لما دريتَ ولا وعيتَ!

إذا كان عون الله للمرء شاملا .. تهيأ له من كل شيء مرادُه

وإن لم يكن عون من الله للفتى .. فأول ما يقضي عليه اجتهادُه

٢٥- (فَإِن كَذَّبوكَ فَقُل رَبُّكُم ذو رَحمَةٍ واسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأسُهُ عَنِ القَومِ المُجرِمينَ ﴿١٤٧﴾)

يُرغّب الله المكذبين في رحمته فيقدمها على العذاب، ويُشعرهم بعظمة فرصة الإمهال التي يتمتعون بها..

فكيف هي رحمة الله بمن آمن به وصدّق رسوله صلى الله عليه وسلم؟

اللهم ظننا فيك أن تدخلنا في رحمتك الواسعة يا أرحم الراحمين.

٢٦- (... وَرَفَعَ بَعضَكُم فَوقَ بَعضٍ دَرَجاتٍ لِيَبلُوَكُم في ما آتاكُم إِنَّ رَبَّكَ سَريعُ العِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفورٌ رَحيمٌ﴿١٦٥﴾)

لكل منا نصيب مقسوم من الخلق والرزق، نتفاضل فيهما في أعين الناس وفق معايير لا يد لنا فيها.. لكن المفاضلة عند الله تكون دوما بما لنا فيه يد، تكون بموقفنا تجاه نصيبنا المقسوم: هل كفرنا وتسخطنا أم شكرنا وصبرنا؟.. وجزاء كل منهما بحسبه، فإن ربنا سريع العقاب وإنه لغفور رحيم!

الأعراف

٢٧- ﴿أَهؤُلاءِ الَّذينَ أَقسَمتُم لا يَنالُهُمُ اللَّـهُ بِرَحمَةٍ ادخُلُوا الجَنَّةَ لا خَوفٌ عَلَيكُم وَلا أَنتُم تَحزَنونَ ﴿٩٤﴾﴾

الظنون السيئة المغروسة في قلوب من أعماهم الكبر وأصمّهم، ينبت منها الخذلان الأعظم في يوم يقال فيه لهم: **﴿أَهؤُلاءِ الَّذينَ أَقسَمتُم لا يَنالُهُمُ اللَّـهُ بِرَحمَةٍ ادخُلُوا الجَنَّةَ لا خَوفٌ عَلَيكُم وَلا أَنتُم تَحزَنونَ ﴿٩٤﴾﴾!**

٢٨- ﴿وَأُلقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدينَ ﴿٠٢١﴾﴾

هناك أناس يصطفيهم الله في لحظات لمنازل تعيي السائرين في أعوام.. كثيرا وأنا أقرأ في القرآن عن سحرة فرعون أتعجب من هذا التحول المفاجيء والإصرار والثبات على الحق.. من سلاح في يد عدو الله إلى شوكة في حلقه، ومن طلب الدنيا إلى بذل المهج بلا تردد ابتغاء ما عند الله، ولما توعدهم فرعون بالعذاب قالوا له -كما في سورة الشعراء- «لا ضير»..

لا ضير أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وأن يصلبوا في جذوع النخل؟!

ربما يشتغل الإنسان بالتعلم ويجهد نفسه بالبحث ثم هو لا يتحصل على بعض هذا اليقين والثبات عند المحنة.. ربما يقرأ عشرات الكتب عن الخشوع ثم لا يصل إليه، وآخَر كانت معرفته أنه يقف بين يدي الله كافية جدا لأن يرمي الدنيا خلف ظهره بتكبيرة الإحرام موليا قلبه شطر الآخرة..

هذا ليس تقليلا منشأن التعلم بالتأكيد، بل إننا لا نملك فعل شيء ينجينا دون التعلم في الحقيقة.. لكنها ذكرى لمن تحدثه نفسه باحتقار إنسان؛ فكلنا مساكين.. لا نملك لأنفسنا نفعا ولا ضرا.. والله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب.

٢٩- ﴿وَيَستَخلِفَكُم فِي الأَرضِ فَيَنظُرَ كَيفَ تَعمَلونَ ﴿٩٢١﴾﴾

كثير منا ينظر إلى التمكين في الأرض على أنه غاية، من تحققت له فقد أدى المطلوب، وربما هذا أحد آثار الواقع الأغبر الذي نعيشه.. لكن في الحقيقة، التمكين في الأرض هو أحد صفحات الاختبار أيضا، يرى به الله ما فعل الناس فيما أعطاهم.. هل أدوا حقه واتقوه أم غرّتهم الدنيا فعصوه؟

وإذا أردت أن تعرف درجتك في هذا الاختبار، فانظر في حالك مع ما مكنك الله فيه، وجعل لك فيه التدبير والتصرف بالفعل.. هل تؤدي حق الله فيه؟.. في أهلك ومالك وصحتك وشبابك وعقلك مثلا؟

الله ينظر كيف تعمل فيما استخلفك فيه، فأره من نفسك خيرا.

الأنفال

٣٠- (... وَلا تَنازَعوا فَتَفشَلوا وَتَذهَبَ ريحُكُم وَاصبِروا إِنَّ اللَّـهَ مَعَ الصّابِرينَ ﴿٦٤﴾)

التفرق والاختلاف على الأمور الثانوية وإهمال الهدف الكبير المشترك من أكبر أسباب الفشل.. ولو تمسك كل فرد من العاملين بما يعجبه في كل أمر لما قامت للفلاح قائمة. اجتماع الكلمة مركز عظيم من مراكز القوة.. فاللهم إنا نعوذ بك من الشقاق.

التوبة

٣١- (إِلّا تَنفِروا يُعَذِّبكُم عَذابًا أَليمًا وَيَستَبدِل قَومًا غَيرَكُم وَلا تَضُرّوهُ شَيئًا ... ﴿٩٣﴾)

التقاعس عن العمل الصالح وقت الحاجة سبب من أسباب الهلاك.. وليس لأحد على الله منّة في شيء يبذله لهذا الدين، إنما يقدّم العبد منا أسباب فلاحه ونجاته.. والسعيد من امتثل الأمر، وأجاب الداعي. اللهم استعملنا ولا تستبدل بنا.

٣٢- (لَو كانَ عَرَضًا قَريبًا وَسَفَرًا قاصِدًا لَاتَّبَعوكَ ... ﴿٤٢﴾)

بعض الناس لا يمتنع عن عمل الخير ما دام ذلك يصبّ في مصلحة هواه.. لم يرفض المنافقون الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبوك لأنهم يرفضون فكرة الخروج بحد ذاتها، وإنما لأنه خروج صعب ومتعب ومخاطره كبيرة، ونسبة الاستفادة الدنيوية منه محدودة.. هنا يعرف الإنسان حقيقة نفسه.. إذا كان المرء سيقعد عن الصيام لأنه يجوع، وعن الصدقة لأن مسؤولياته كثيرة، وعن الصلاة لأنه مشغول، وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنه قد يعرضه للإحراج، وعن طلب العلم لأن محاولته الأولى لم تنجح، وعن تقويم السلوك لأنه لم يتعود.. فماذا يتبقى له من دينه؟

اللهم لا أبريء نفسي.. استرنا واعف عنا يارب!

٣٣- ﴿فَلا تُعجِبكَ أَموالُهُم وَلا أَولادُهُم إِنَّما يُريدُ اللَّـهُ لِيُعَذِّبَهُم بِها فِي الحَياةِ الدُّنيا وَتَزهَقَ أَنفُسُهُم وَهُم كافِرونَ ﴿٥٥﴾﴾

ما أشدّ أن تكون النعمة الظاهرة عذابا باطنا لأصحابها، فلا هم نالوا متعتها ولا انتهى أمرهم بمجرد الحرمان منها، بل كانت هي نفسها محل وبال ومصدر شقاء..

اختلفت أقوال المفسرين في العذاب المقصود، وكان من أكثرها أثرا في نفسي ما ذكره الشيخ السعدي رحمه الله حيث قال:

"والمراد بالعذاب هنا: ما ينالهم من المشقة في تحصيلها، والسعي الشديد في ذلك، وهمّ القلب فيها، وتعب البدن..

فلو قابلت لذاتهم فيها بمشقاتهم، لم يكن لها نسبة إليها، فهي -لما ألهتهم عن الله وذكره- صارت وبالا عليهم حتى في الدنيا..

ومن وبالها العظيم الخطر: أن قلوبهم تتعلق بها، وإرادتهم لا تتعداها، فتكون منتهى مطلوبهم وغاية مرغوبهم ولا يبقى في قلوبهم للآخرة نصيب، فيوجب ذلك أن ينتقلوا من الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون» اهـ.

تأملتُ في هذه العقوبة المخيفة، وتذكرت أناسا ظنوا في المال السعادة فتعبوا في جمعه، وما كان لهم إلا مصدرا للقلق والخوف، وأناسا تباهوا بالولد صغيرا وظنوا فيه السند والقوة فلما كبر لم يكن إلا عاقا فاسدا، وأناسا ملكَتهم النعمة بدلا من أن يملكوها، فحُرموا طعم الاحتساب ولم يكن لهم على فقد شيء من دنياهم صبر ولا عزاء!

ثم تأملت خفاء هذه العقوبة على العقول، حتى بيّن الله سبحانه لنبيه أن إنعامه على المنافقين بالمال والولد من طرق تعذيبه لهم.. فاستفدت من هذا كله فوائد ثلاث:

الأولى: أن المؤمن لا ينبغي أن ينبهر بالعطاءات الدنيوية، فقد يكون في ظاهرها الرحمة وفي باطنها العذاب.

الثانية: مناسبة هذا العقاب الخفي بالنعم لأهل النفاق، لأنهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر وظنوا أنهم يخادعون الله، فلعل في هذه العقوبة مصداقا لقول ربنا «وهو خادعهم»!.

الثالثة: مشابهة هذه العقوبة الخفية للمنافقين في الدنيا -بوجه ما- لعقاب الله لهم في الآخرة، كما في سورة الحديد، فإنهم لما قالوا للذين آمنوا (انظرونا نقتبس من نوركم) ما قيل لهم لن تقتبسوا فأنتم من أهل النار، وإنما قيل: (ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا)، فضُرب بينهم بسور له باب، باطنه مما يلي المؤمنين رحمة، وظاهره مما يلي المنافقين عذاب.. فكان الأمل الذي تعلقوا به لتحقيق النجاة مصدرا لحسرتهم وعذابهم كما كانت النعمة بالمال والولد لتحقيق السعادة والقوة في الدنيا مصدرا لألمهم وشقائهم، وقد خُدعوا في الحالتين جميعا.

وإن كان من فائدة رابعة؛ فهي أن يدعو العبد ربه دوما ألا يعذبه بنعمة أنعمها عليه، وأن يستره وينجيه ولا يجعله من المنافقين.. اللهم لي ولمن قرأ.. آمين.

والله أعلم وأحكم وعليه قصد السبيل.

٣٤- (... وَالَّذينَ لا يَجِدونَ إِلّا جُهدَهُم فَيَسخَرونَ مِنهُم سَخِرَ اللَّـهُ مِنهُم وَلَهُم عَذابٌ أَليمٌ ﴿٩٧﴾)

لم يتوعدهم الله بالعذاب فحسب، وإنما دافع سبحانه عن الصادقين الذين لا يجدون إلا اليسير ليتصدقوا به، وجبرهم وردّ عنهم السخرية.. بينما توعد المنافقين الذين فيهم «أولوا الطول» من القاعدين.. لنعلم أن من يحتقر الطائعين هو الحقير وإن كان عظيما في أعين الناس، وأن العبرة بالصدق لا بالكثرة.. فسبحانك ربي ما أعظمك وما أرحمك!

يونس

٣٥- (بَل كَذَّبوا بِما لَم يُحيطوا بِعِلمِهِ وَلَمّا يَأتِهِم تَأويلُهُ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذينَ مِن قَبلِهِم فَانظُر كَيفَ كانَ عاقِبَةُ الظّالِمينَ ﴿٣٩﴾)

بيَّن الله سبحانه أن تكذيب الكافرين ليس راجعا إلى كونهم يعتقدون أنه مفترى، ولكنهم لم يرتقوا إلى الإحاطة بعلم هذا الكتاب، فعادوه وكذبوا به دون أن يتدبروا ما فيه، استكبارا منهم عن الإصغاء لما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم إصغاء استرشاد وقبول.. بيّن الله تعالى لنا أنهم جمعوا بين عدم تأمل معانيه وفهمها حق الفهم مع عجزهم عن الإتيان بمثله، وبين التكذيب به والمعاداة للرسول صلى الله عليه وسلم.. فالقضية ليست في اعتقادهم أن الرسول كاذب، ولكن في أنهم جاهلون مستكبرون. كما بين أن هذه الحال ليست حالهم وحدهم، لكنها حال من سبقوهم ممن ألحق الله بهم عذابه بسبب ظلمهم.. -وفي هذا لنا عبرة عظيمة، وهي أن نحذر المعارضة والتكذيب قبل التثبت والتأمل والسؤال، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره، فمن حكم على شيء قبل أن يستوفي تصوره تصورا صحيحا فهو أجدر أن يحكم عليه حكما جائرا.. ولهذا علينا ألا نشابه هؤلاء المكذبين ممن كذبوا نبيَّنا محمدا صلى الله عليه وسلم وممن كان قبلهم ممن كذبوا الرسل السابقين سلام الله عليهم .

هود

٣٦- (قالوا أَتَعجَبينَ مِن أَمرِ اللَّـهِ ... ﴿٣٧﴾)

لا يوجد شيء عجيب بالنظر إلى قدرة الله تعالى.. فهو سبحانه لا يتعاظمه شيء، ولا يعجز عن شيء.. بيده الخزائن ويداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء.. يعطي من شاء ما شاء كيفما شاء.. أتيأس وهو ربك؟

لا تنصرف عن بابه، فإن اللجوء إليه أمن وعز وغنى، واللجوء لغيره قلق وذل وفقر.

٣٧- (وَيا قَومِ لا يَجرِمَنَّكُم شِقاقي أَن يُصيبَكُم مِثلُ ما أَصابَ قَومَ نوحٍ أَو قَومَ هودٍ أَو قَومَ صالِحٍ وَما قَومُ لوطٍ مِنكُم بِبَعيدٍ ﴿٨٩﴾)

صورة فريدة من صور الرحمة في الدعوة يرسمها شعيب عليه السلام.. أن لا تحملك عداوة المدعوّ لك على أن تتوقف عن نصحه، وإنما تحملك على مزيد من النصح والإشفاق.. فتقول له: إذا كنت تكرهني، فتمسّك بحرصك على نجاتك ولا تعرّض نفسك للهلاك بسبب هذه الكراهية.

٣٨- (... وَما أَنتَ عَلَينا بِعَزيزٍ ﴿٩١﴾)

لم يكن شعيب عزيزا عليهم لكن الله اصطفاه نبيا.. كانوا في يوسف من الزاهدين وكان عند الله من المخلصين.. كان إبراهيم في نظرهم مجرد فتى وهو خليل الرحمن.. انتقاص الناس منك لا وزن له إذا كنت تتقي الله وتسعى في رضاه.

يوسف

٣٩- (قالَت فَذلِكُنَّ الَّذي لُمتُنَّني فيهِ ... ﴿٢٣﴾)

أنت سبَّاح ماهر طالما أنك على الشاطيء، تستخفّ بالموج وتصدر الأحكام.. حتى إذا أبحرتَ وعيت.. من يستهن بالاختبار يُخدَع، ومن يستشرف الفتنة تستشرفه، فإياك وهذا تسلم!

٤٠- (... وَقَد أَحسَنَ بي إِذ أَخرَجَني مِنَ السِّجنِ وَجاءَ بِكُم مِنَ البَدوِ ... ﴿١٠٠﴾)

هكذا المحسن.. يحدّث بإحسان الله له، ويعدد أفضال الله عليه.

٤١- (... تَوَفَّني مُسلِمًا وَأَلحِقني بِالصّالِحينَ ﴿١٠١﴾)

حتى النبي المخلَص الصدّيق يدعو أن يموت على الإسلام، وقد كان من أكثر دعاء نبينا صلى الله عليه وسلم «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرّف القلوب والأبصار صرّف قلبي إلى طاعتك».. فلا تغتر بطاعة، بل سل الله الثبات.

الرعد

٤٢- (لَهُ دَعوَةُ الحَقِّ ... ﴿٤١﴾)

في سورة الرعد يفصّل الله لنا الآيات لنوقن بلقائه ولنتفكر ولنتعقل، ويضرب لنا الأمثال لنميّز بين الحق والباطل..تتجلى في هذه السورة العظيمة دلائل ربوبية الله سبحانه، فهو من رفع السماوات بلا عمد وسخر الشمس والقمر ومدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا وأخرج أنواع الزروع، وهو من يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، وهو من يستوي عنده السر والعلن لتمام علمه، ولا يُردّ أمر أراده لتمام قدرته، ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته لتمام عظمته.. من يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، ومن هو رقيب على أفعال العباد..

ومع ذلك كله ينكر الكفار أن من يفعل كل هذا قادر على أن يحييهم بعد أن يموتوا.. ومع ذلك كله يجادلون في الله.. فما أعجب قولهم!

فإذا كان الله وحده هو من يفعل كل هذا، فهل من العقل أن يُعبد من دونه أحد؟، إنه وحده هو من يجيب الدعاء وما مثل الذين يدعون غيره إلا كعطشان يقف أمام بئر ويبسط يده لينتقل الماء من البئر إلى يده ومن يده إلى فمه، فما أخفّ عقله، وما أعجب صنيعه.. إن الآلهة التي يدعوها من دون الله لا تملك له نفعا ولا ضرا، وهو مع ذلك يتخذها أولياء من دون الله، ألا ما أعمى بصيرته!.. ألم يكن من الأولى أن يعبد من رفع السماء وأنبت الأرض وعلم سره وعلانيته واستجاب دعاءه؟.. من المؤكد أن هذا لا يستوي مع من يؤمن بالله الحق، ويجيب دعوة التوحيد بالحق..

فمن يؤمن بالله ويوفي بعهده ويصل ما أمره بوصله ويخشاه ويخاف من عاقبة سيئاته ويصبر على ما أصابه ويقوم بشرائع الله، له الطمأنينة بذكر ربه وله السلام ونعيم الجنة.. ومن يجحد دعوة الحق وينقض عهد الله ويقطع ما أمره بوصله ويفسد في الأرض، له اللعنة وعذاب النار..

في سورة الرعد يثبت الله سننه في الأسباب، ويهدينا إلى حقائق تغيب عنا كثيرا، من أعظمها أن بسط الرزق الدنيوي لا يدل على تحقق النعيم الأخروي، فما هذه الحياة الدنيا إلا متاع زائل، لا تستحق أن نفرح بها، ولا أن نجعلها غاية؛ لأن الصورة فيها دوما غير مكتملة.. تأمل مثلا قول الله سبحانه لنبيه «فإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب».. لتعرف أن الدنيا ليست دار الجزاء وإنما هي دار البلاء.. ولتعرف كذلك أن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن مشروطة بشيء لم يعده الله به، وأن ما تراه حولك من بعض من يريدون العمل لدين الله -من يشترطون أن يروا أثرا فوريا لما يقولون ويفعلون كي يتحركوا- هو نوع من التعالي على وظيفة الدعوة.. لم يكن على الرسول إلا البلاغ، فما بالك تريد جزاء البلاغ أو جزاء أي عمل صالح آخر فوريًّا في الدنيا؟..

نتعلم في رحاب سورة الرعد أن الجزاء الحق هو الجزاء الأخروي، كما نتعلم أن أقدار الله نافذة بما يريده سبحانه وفق حكمته لا بمجرد ما نريده نحن العباد، مهما كنا نظن أن ما نريده هو الصالح والصواب، فما يقدره الله هو الأصلح والأصوب.. فكل شيء عنده بمقدار وهو عالم الغيب والشهادة.. وكذا نتعلم أن أمر الله هو أجدر الأمور بالاتباع لا أهواء الناس، وأنت إذا تأملت قول الله سبحانه لنبيه «ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق» عرفت أن مَن دون النبي صلى الله عليه وسلم أولى بهذا الخطاب، وأن اتباع أهواء الناس في سخط الله مَهلكة .

في هذه السورة نتقلب بين أحوال المؤمنين وأحوال الكافرين، بين الوعد والوعيد وبين الخوف والرجاء، لكننا نعرف أن رحمة الله سبقت غضبه فإنه سبحانه «ذو مغفرة للناس على ظلمهم» وإنه سبحانه «لشديد العقاب»..

في سورة الرعد تحيطك دعوة الحق.. دعوة التوحيد.. فهلّا ختمتها مستجيبا؟

فـ (لِلَّذينَ استَجابوا لِرَبِّهِمُ الحُسنى ... ﴿٨١﴾)

إبراهيم

٤٣- (... وَلَنَصبِرَنَّ عَلى ما آذَيتُمونا وَعَلَى اللَّـهِ فَليَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلونَ ﴿٢١﴾)

بعض الناس يتصورون أن أهل الحق لا يمكن أن يُؤذَوا، لكن الاختبار ليس هكذا.. إنه طريق جهاد وبذل، قد يؤذى فيه الصالحون لكنهم يصبرون حتى يصلوا إلى الجنة، ومن ابتغى مبتغاهم عليه أن يتبع آثارهم.

٤٤- (... وَاجنُبني وَبَنِيَّ أَن نَعبُدَ الأَصنامَ ﴿٣٥﴾)

هذا خليل الله يتعوذ بالله من الشرك، فمن ذا الذي يأمن على نفسه ذنبا من الذنوب؟

اللهم سلمنا وثبتنا حتى نلقاك على التوحيد الخالص.

الحجر

٤٥- (وَنَزَعنا ما في صُدورِهِم مِن غِلٍّ ... ﴿٤٧﴾)

كان هذا من تمام نعيم أهل الجنة، فالضغائن رهق لأصحابها كما هي رهق لمن حولهم.. ومن أوتي قلبا صافيا فقد أوتي ضربا من النعيم.

٤٦- (... وَإِنَّ السّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصفَحِ الصَّفحَ الجَميلَ ﴿٨٥﴾)

التذكير بأجور الآخرة من أعظم ما يعين المؤمنين على بذل الندى وتجاوز الصعاب، وليس لمن لا يؤمنون بالآخرة عزاء حين يصيبهم ما يكرهون أو يفوتهم ما يبتغون.. فاللهم حسن العمل، وحسن العاقبة.

٤٧- (وَاللَّـهُ فَضَّلَ بَعضَكُم عَلى بَعضٍ فِي الرِّزقِ ... ﴿١٧﴾)

تفهُّم العبد هذه الحقيقة وقبوله إياها يقيانه من كثير من أمراض القلوب، كالحسد والمنافسة على الدنيا.. فالأرزاق أوسع من المال كما هو معلوم.. ويدخل فيها كثير من الأمور المادية والمعنوية الأخرى..

فإذا عرف العبد أن الجمال والجاه والزواج والمحبة والفهم والعلم كلها من أرزاق الله، لم يحقد على من فُضّل عليه فيها، بل يستريح فؤاده لقسمة الله سبحانه له، ولم يطلبها بمعصية الله لأنه يعرف أن الله هو من بيده العطاء والمنع، فلا يطلبها إلا بالوجه الذي يرضاه الله، بالدعاء وبالورود على الأسباب التي جرت سنة الله بعملها.. ثم يرضى بعد ذلك بالقسمة ويفوض لله أمره..

وكم يعجبني قول أحد الشناقطة:

وقسمة الحظوظ فيها يدخلُ.. فهم المسائل التي تنعقلُ

فيُحرم الذكي من فهم الجلي.. إن لم يكن من حظه في الأزلِ!

فالمسألة ليست بالأسباب فقط، لكنها أرزاق مقسومة.. ولهذا قد تجد الماهر أقل نصيبا من البليد، وتجد الفتاة الجميلة صاحبة الخُلُق لم تُرزق زوجا، إلى غير ذلك من الصور التي تؤكد معنى:

ومن الدليل على القضاء وحكمه**بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

وما أعظم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أرشدنا إلى أنه: (قد أفلح من أسلم، ورزق كفافا، وقنعه الله بما آتاه).. جعلنا الله وإياكم من المفلحين.

٤٨- (ما عِندَكُم يَنفَدُ وَما عِندَ اللَّـهِ باقٍ ... ﴿٩٦﴾)

هذه الحقيقة البليغة ينبغي ألا تغيب عن قلب المؤمن حين تتنازعه مادة الدنيا ومادة الآخرة، فمهما كانت حصيلته الدنيوية فإنها -بالإضافة إلى قلتها- منتهية زائلة، وأما الأجر من عند الله فهو الكثير الباقي.. والعاقل يؤثر الباقي على الفاني.

الإسراء

٤٩- (مَن كانَ يُرِيدُ العاجِلَةَ عَجَّلنا لَهُ فيها ما نَشاءُ لِمَن نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصلاها مَذمومًا مَدحورًا ﴿٨١﴾)

ما أبأس حال من اشترى دنياه بآخرته!، خسر الآخرة ثم لم يأته من الدنيا إلا ما أراد الله له وليس ما تمنى هو لنفسه.. وهذا معنى ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث عمن كانت الدنيا همه «ولم يأته من الدنيا إلا ما قدّر له»..

اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تجعل مصيبتنا في ديننا.

٥٠- (وَمَن أَرادَ الآخِرَةَ وَسَعى لَها ... ﴿٩١﴾)

من أراد الآخرة يلزمه أن يسعى لها بالعمل الصالح، والإرادة من غير سعي هي إرادة المغرورين الكاذبين.. يقول ابن عاشور رحمه الله حول هذا المعنى:

"وفي الآية تنبيه على أن إرادة خير الآخرة من غير سعيٍ غرورٌ، وأن إرادة كل شيء لابد لنجاحها من السعي في أسباب حصوله، قال عبد الله بن المبارك :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها.. إن السفينة لا تجري على اليبس» اهـ

٥١- (وَإِمّا تُعرِضَنَّ عَنهُمُ ابتِغاءَ رَحمَةٍ مِن رَبِّكَ تَرجوها فَقُل لَهُم قَولًا مَيسورًا ﴿٨٢﴾)

يعلمنا الله أن عطاء المؤمن لا يتوقف عند حد المال، فهو إن لم يعط المال أعطى الكلمة الطيبة ونشر البشرى واليُسر..

وفي هذه الآية من اللطف والرحمة بالعباد ما يفقهه من يدرك معنى أن يخبر الملك الجليل سبحانه في كتابه المعجز بأمر لا يهتم له كثير من الناس، وهو الطريقة التي ينبغي أن يُردّ بها مسكين أو عابر سبيل حينما لا يتوفر لدينا ما نعطيه إياهم، فتأمل!

الكهف

٥٢- (الحَمدُ لِلَّـهِ الَّذي أَنزَلَ عَلى عَبدِهِ الكِتابَ ... ﴿١﴾)

إنزال القرآن نعمة عظيمة تمدح الله عز وجل بها، وهي جديرة أن نحمده سبحانه عليها.. فكتاب الله نور وهدى وبشرى ورحمة.. يا سعد من شكرها فتلاه وتدبره وعمل بما فيه، ويا حسرة من غفل عنها، فما تلا ولا وعى ولا عمل..

اللهم برحمتك لا تجعلنا ممن ضيع!

٥٣- (... وَلا تَعدُ عَيناكَ عَنهُم تُريدُ زينَةَ الحَياةِ الدُّنيا ... ﴿٢٨﴾)

إن شرف المعرضين وجاههم لا يقارن بقلبٍ يريد وجه الله سبحانه.. لا تنتقِ جلساءك بقدر جاههم وشرفهم، بل بقدر ما في قلوبهم من إيمان صادق تصدقه أعمالهم الصالحة.. فهؤلاء صحبة الخير والبركة، ادنُ منهم.. ابق معهم.. ولا تعدُ عيناك عنهم!

٥٤- (قالَ إِن سَأَلتُكَ عَن شَيءٍ بَعدَها فَلا تُصاحِبني ... ﴿٧٦﴾)

أحيانا نقرر لأنفسنا الجزاء ثم لا نقوى على الأداء..

أخبرنا نبينا صلى الله عليه وسلم أن موسى عليه السلام لو صبر لكان رأى عجبا، وهو عليه السلام لم يكن ينوي ألا يصبر، لكن ما رآه أنساه ما كان عزم عليه أول مرة، وهو رسول من أولي العزم..

ففي هذا لنا درس عظيم: ألا نوجب على أنفسنا شيئا لا نعرف هل هو الأولى لنا أم لا، وهل نطيقه أم لا، فلربما نكون في حاجة إلى غيره، أو نكون أضعف منه.. ولعل هذا أحد أوجه الحكمة في كون إبرام النذر مكروها في هذه الشريعة الميسرة الرحيمة.. فتأمل!

وصلى الله على موسى الكليم، وعلى رسولنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

مريم

٥٥- (فَكُلي وَاشرَبي وَقَرّي عَينًا ... ﴿٦٢﴾)

كان يكفي أن يقول لها كلي واشربي وحسب، لكن الله سبحانه جبر نفسها المنكسرة في أشد لحظاتها ضعفا.. في لحظة تمنّت فيها الموت.. فقال لها «وقرّي عينا»..

فسبحان ربنا الودود.

٥٦- (وَكانَ يَأمُرُ أَهلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ... ﴿٥٥﴾)

لم يكتفِ إسماعيل عليه السلام بصلاح نفسه وإنما كان يسعى في إصلاح من حوله، وأخص الناس بذلك وأحقهم به هم الأهل.. وقد امتدحه الله سبحانه في القرآن العظيم بهذه الصفة.. فلا يظنن ظان أن دوره في أسرته يقتصرعلى توفير المأكل والملبس والمسكن، بل غاية ذلك كله هو سعيك في إصلاح دينهم، فلا يلهينك الفرع عن الأصل.

طه

٥٧- (قالَ لا تَخافا إِنَّني مَعَكُما ... ﴿٦٤﴾)

يعلمنا موقف موسى وهارون عليهما السلام لما (قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) أن نشكوا إلى الله مخاوفنا كلما اشتدت علينا الخطوب، فالله سبحانه هو من يثبتنا، وهو من يمنحنا الأمان.. كما يعلمنا جواب الله لهم (قال لا تخافا إنني معكما) أن استحضار معية الله سبحانه يبدد المخاوف مهما عظمت..

الأنبياء

٥٨- ﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٢٩﴾﴾

ما أجمل تفسير الشيخ السعدي رحمه الله لهذه الآية إذ يقول:

"أي: هؤلاء الرسل المذكورون هم أمتكم وأئمتكم الذين بهم تأتمون، وبهديهم تقتدون، كلهم على دين واحد، وصراط واحد، والرب أيضا واحد" اهـ

تأمل هذه الآية الكريمة بهذا المفهوم لتتسع الأمة في تصورك زمانا ومكانا وشعورا.. فأنت لا تنقطع عن الرسل السابقين بحال، ولا تعرف أنك على ملة التوحيد كما هو حالهم فحسب، وإنما تتأسى بهم وتتعلم من صنائعهم وتحبهم وتواليهم وتعظمهم وتدافع عنهم، وإن تباعد الزمان واختلف المكان.. فهم أمتك، وأئمتك..

وكل هذه المعاني داخلة في أصل من أصول الإيمان (الإيمان بالرسل).. لكن عبارة الشيخ رحمه الله في تفسير الآية جمعتها ببساطة وعمق.. فرضي الله عنه وكتب أجره ورفع درجته في الفردوس الأعلى.. في صحبة الرسل.

الحج

٥٩- ﴿... كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّـهَ ... ﴿٧٣﴾﴾

في تعليق نفيس للإمام القرطبي رحمه الله على تقرير نعمة تسخير الأنعام لنا وهي أعظم منا أبدانا وأقوى منا أعضاء يقول: "ذلك ليعلم العبد أن الأمور ليست على ما تظهر إلى العبد من التدبير، وإنما هي بحسب ما يريدها العزيز القدير، فيغلب الصغير الكبير ليعلم الخلق أن الغالب هو الله الواحد القهار فوق عباده.» اهـ

قلتُ: فلعل هذا معنى من مناسبة ذكر التكبير بعدها، وعند الذبح كذلك، كي لا يطغى الإنسان بقدرته على هذه المخلوقات المسخرة، وإنما يعلم أن ربه أقوى منه وأقدر وأكبر.. وأنه لولا تسخيره تلك الأنعام له لما ذلّت له ولما قدر منها على شيء.. والله أعلم.

المؤمنون

٦٠- (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾)

قد يغفل كثير من الناس عن تلك الصفة من صفات ورثة الفردوس لا سيما وسط هذا العالم الذي لا يتوقف عن الكلام، وربما لم يعد لديهم الوقت ليفكروا فيما يتكلمون به أو يسمعونه أو ينشرونه، أهو لغو أم حق؟.. وهل يستحق الخوض أم الإعراض؟..

فعلى المؤمن أن لا يتوانى في مراقبة حاله وتعاهد نفسه فيما يقول ويسمع ويكتب، وكما يقول السعدي رحمه الله:

"وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فإعراضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى، وإذا ملك العبد لسانه وخزنه -إلا في الخير- كان مالكا لأمره، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا قال: " ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ " قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه وقال: " كف عليك هذا " فالمؤمنون من صفاتهم الحميدة، كف ألسنتهم عن اللغو والمحرمات." اهـ

النور

٦١- (رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّـهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴿٧٣﴾)

لم يمتنع هؤلاء الصالحون عن التجارة والبيع مطلقا، وإنما كانوا يعرفون أن عبادة الله هي نهاية القصد وغاية المراد فلم تلههم الدنيا عن عمارة المساجد بالصلاة والذكر، لأن إيمانهم بالآخرة كان أقوى داعيا مما تحبه النفس من الانشغال بالأموال والاتجار.. ولهذا قال الله فيهم «يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار».

٦٢- (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ... ﴿٤٧﴾)

من عظيم نعمة الله على العبد أن يرى زوجه وولده مسلمين لله، يطيعونه ويحسنون عبادته، ولا يجرون عليه الجرائر كما يقول ابن جريج رحمه الله..

وما أعظم ابتلاء من ابتلوا برؤية أحبابهم على غير الطريق المستقيم فتضرعوا لله أن يقر أعينهم برؤية أحبابهم طائعين.. والله سبحانه مطلع عليهم، يعلم كيف يتألمون وماذا يتحملون.. فذكر دعاءهم ووعدهم الأجر الجزيل..

وكم يؤثر في نفسي قول المقداد رضي الله عنه في هذا الأثر، وأشعر في كل كلمة منه بوجه من علو قدر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن اصطفاءهم لصحبته وثناء الله عليهم في القرآن، وتثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبشيره لهم لم يكن بلا ضريبة.. كم تعبوا وكم عانوا وكم صبروا! .. رضي الله عنهم وأرضاهم..

"عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوما فمر به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله لوددنا أنا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت.. فاستغضب، فجعلت أعجب ما قال إلا خيرا..

ثم أقبل إليه فقال: «ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضرا غيبه الله عنه لا يدري لو شهده كيف كان يكون فيه؟ والله لقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جهنم!، لم يجيبوه ولم يصدقوه..

أولا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين لما جاء به نبيكم قد كفيتم البلاء بغيركم؟

والله لقد بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم على أشد حال بعث عليها نبي من الأنبياء في فترة وجاهلية، ما يرون أن دينا أفضل من عبادة الأوثان.. فجاء بفرقان فرّق به بين الحق والباطل، وفرق بين الوالد وولده، حتى إن كان الرجل ليرى والده وولده أو أخاه كافرا وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان يعلم أنه إن هلك دخل النار.. فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار.

وأنها للتي قال عز وجل (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين).» اهـ.

فما أعظم هذا الدعاء.. دعاء من يُجزون الغرفة «بما صبروا» ويُلقّون فيها تحية وسلاما..

الشعراء

٦٣- (قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾)

كان المفترض أن يذكروا بعد استفهامهم شيئا أخطأ فيه نوح عليه السلام، أو عيبا فيما يدعوهم إليه، فلما اعترضوا بأن أتباعه عليه السلام من الفقراء والضعفاء عرفنا أن حجتهم مقطوعة وأنهم هم الأرذلون لا من وصفوهم..

وعرفنا كذلك أن الكبر يعمي أهله عن اتباع الحق مهما كان جليًّا، فيرفضونه حتى لا يتساووا مع غيرهم من الناس.. ولهذا نظائر كثيرة في القرآن.

النمل

٦٤- (... فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ... ﴿٢٢﴾)

قد يبلغ الضعيف ما لم يبلغه القوي، وقد يطلع الجندي على ما يخفى على القائد.. فحتى سليمان الذي وُهب ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، سبقه هدهد بمعرفة خبر سبأ.. فلا تستهن بما يحمله الآخرون مهما استصغرتهم عينك، ربما كان بين أمتعتهم البسيطة كنز من علم لم تبلغه، أو خير لم يصل إليك بعد.

القصص

٦٥- (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾)

من أفضل ما يحرص عليه والد الفتاة هو أن يربيها على أن تكون امرأة عاقلة.. تزن الأمور وتقدرها بقدرها، حتى إذا حزبه أمر فاستمع إليها وجدها لا تجلب له مضرة، ولا تفوّت عليه خيرا، وإنما تشير عليه بالنظر الصائب والرأي الحكيم.

العنكبوت

٦٦- (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ... ﴿١٥﴾)

ويح من جاءته معجزة القرآن فأعرض عنها.. فإن من يقرأ القرآن طالبا منه الهداية، ويفهم مقاصده ويتدبر معاني آياته لن يحتاج إلى معجزة أخرى ليوقن أنه كتاب الله حقا، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله حقا، وأن الإسلام دين الله حقا.. فالحمدلله الذي أنزل القرآن وجعل فيه الكفاية.

٦٧- (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾)

هل تفهم حقا معنى أن هذه الدنيا بكل ما فيها من تنافس وصراعات وتعلقات وضغائن وهموم، ما هي إلا لهو ولعب؟!

من المزعج في محاولات الخلط بين رؤية الإسلام ومختلف الرؤى الفكرية المعظمة للدنيا، تلك الغفلة المؤسفة عن هذا الأصل الكبير.. عن فرعية الدنيا وحقارتها، ومركزية الآخرة وعظمتها.

الروم

٦٨- (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾)

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يعني : الكفار يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال.» ، وقال الحسن: «والله لبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه، وما يحسن أن يصلي!» اهـ

قلتُ: نفى الله سبحانه عنهم العلم مع أنهم يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا لتحقير العلم المقتصر على الدنيا ولا يتجاوزها، وأما إذا كان العلم الدنيوي نافعا مستعملا في مرضاة الله سبحانه، وكان صاحبه ليس من الغافلين عن أمر الدين، فهو باب خير عظيم، وواجب على المسلمين تعلم العلوم الدنيوية النافعة كما شرح ذلك الشيخ الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان، والشيخ السعدي في تفسيره.

لقمان

٦٩- (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّـهِ ... ﴿٢١﴾)

من أنعم الله عليه بأن يكون عبدا شاكرا فقد أتاه شيئا من الحكمة..

يقول الإمام الطبري رحمه الله: «وجعل قوله: (أنِ اشكُرْ) ترجمة عن الحكمة؛ لأن من الحكمة التي كان أوتيها، كان شكره الله على ما آتاه» اهـ

وهذا من أوضح الأمور، لأن شكر الله سبحانه مجلبة للخير ومنجاة من الشر في الدنيا والآخرة.. فقد وعد الله الشاكرين بالزيادة: **(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُم لَئِن شَكَرتُم لَأَزِيدَنَّكُم ... ﴿إبراهيم: ٧﴾)**، وتكفل بجزاءهم فقال: **(وَسَيَجْزِي اللَّـهُ الشَّاكِرِينَ ﴿آل عمران: ١٤٤﴾)** وقال: **(وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿آل عمران: ١٤٥﴾)**

وإذا كان العبد يشكر من يحمل له متاعه أو يأتيه بهدية أو يناوله كوب ماء، فكيف يفوته أن يشكر الله الذي فطره وأنعم عليه بالسمع والبصر وسائر النعم إلا إذا فاتته الحكمة؟.. اللهم ما أمسى وأصبح بنا من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر.

السجدة

٧٠- (أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾)

يمكن اعتبار ميزان العدل أحد أهم الدروس التي نتعلمها من تدبر سورة السجدة، فدلائل تفرد الله سبحانه بالربوبية ومن ثم تفرده بالألوهية في أول السورة وآخرها ما جاءت عبثا، وإنما جاءت إنذارا للناس «لعلهم يهتدون» وحثا لهم أن يتذكروا، ويسمعوا، ويبصروا حقائق الأمور، ولا يتهاونوا في موقفهم من تلك الآيات لأن الجزاء سيكون فارقا حقا..

في هذه السورة تتجلى أمامنا مفارقة العمل والجزاء.. فمن نسوا يوم الحساب وتركوا العمل الصالح كان جزاؤهم على شاكلة عملهم فتركهم الله في العذاب.. من أخلصوا لله العبادة فقاموا بين يديه وقد خفي على الناس أمرهم كان جزاؤهم على شاكلة عملهم فلا تعلم نفس ما «أخفي» لهم من قرة أعين.. من آمنوا وعملوا صالحا في جنات المأوى لأنهم عندما ذُكّروا بآيات الله قابلوها بالانقياد فخروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم، بينما أهل الفسق في عذاب النار فإنهم لما ذكروا بآيات الله أعرضوا عنها فانتقم الله منهم.. من أيقنوا بآيات الله عند الاختبار جعلهم الله أئمة يهدون بأمره، ومن لم يوقنوا إلا عند الاضطرار جاءوا عند ربهم ناكسي الرؤوس.. من صبروا على الطاعة تقر أعينهم بالنعيم، ومن استعجلوا يوم الجزاء يطلبون الرجوع للعمل مرة أخرى.. لتحيا في نفوسنا مع كل آية حقيقة أنهم بالفعل «لا يستوون»!

الأحزاب

٧١- (لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّـهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... ﴿٢١﴾)

كلما مرّت بك شدة، انظر في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وافعل كما كان يفعل.. كلما اشتبه عليك أمر، انظر في سنته وامتثل ما أمر به..

كلما رأيت الناس يتشعب بهم التأسي، فلا ترضَ عن التأسي به بدلا..

وكلما نالت الدنيا من صفو بالك فاعلم كان يحزن ويتألم ويصيبه الهم، ولكنه لم يتوقف عن العمل أبدا .. لم يصده البلاء عن العمل، ولم يكن يرضى إلا بالإحسان والزيادة .. صلى الله عليه وسلم.. فسِر على آثاره تصل.

اللهم لا تفرق بيننا وبين نبيك حتى تدخلنا مدخله.

سبأ

٧٢- (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾)

بعض الناس يستنتجون من توسيع الله سبحانه في أرزاقهم الدنيوية أن الله راض عنهم، وقد بيّن الله في القرآن خطأ هذا الاستنتاج.. فبين الله أن القرب منه غير مرتبط بالأموال والأولاد، وأنه حين يعطي عباده من الدنيا أو يمنعهم فإن هذا لا يدل على حبه أو بغضه لهم، أو قربهم أو بعدهم منه.. وإنما يفعل ذلك اختبارا لهم.. وقد تكرر هذا المفهوم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم لشيوعه عند الناس، ولهذا يقول الطبري رحمه الله: «وأكثر الناس لا يعلمون أن الله يفعل ذلك اختبارًا لعباده ولكنهم يظنون أن ذلك منه محبة لمن بسط له ومقت لمن قدر عليه» اهـ

ومن أعظم المواطن التي تبين هذا المفهوم في نفسي في غير سورة سبأ -وكل كلام ربي عظيم-، آيات سورتي الزخرف والفجر.. ولعل هذا المفهوم يريح قلب العبد كثيرا، ويفتح عينيه على حقيقة الاختبار، كما يعلّمه أن أصل الثواب إنما هو الثواب الأخروي، كما يبين حقارة الدنيا عند الله، وأنها لو كانت تساوي عنده جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء..

ونسأل الله أن يرزقنا رزقا طيبا مباركا فيه وأن يعافينا في الدنيا والآخرة.

فاطر

٧٣- (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّـهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَـكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّـهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾)

كل ما تشاهده حولك من الظلم والكفر والطغيان والتمادي لا يغفل الله عنه أبدا، وإنما له موعد فيه سيعلم العباد أن الله سبحانه كان بصيرا بما يفعلون، وفيه يُقضى بالحق ولا مهرب فيه من القصاص والجزاء.

٧٤- (إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾)

عظيمة الشأن حقا تلك القصة.. قصة ذلك الرجل الداعية، الذي لم يكن نبيا ولا رسولا.. ولكنه ذاق طعم الإيمان، ووهبه الله سبحانه قوة قلبية تخالطها رحمة عجيبة..

تأمل حاله وهو آت من أقصى المدينة.. لم يجيء على مهل بل جاء يسعى.. ولم يجيء ساكتا بل جاء مناديا «يا قوم»!، بما يشعرك أن الخطب عظيم..

لم تكن له حاجة دنيوية يريد قضاءها.. لم يرد إلا أن يدافع عن رسل الله، وأن يقول كلمة الحق.. كلمة الإيمان..

فبالله انظر كيف خاطب هؤلاء العتاة المتجبرين الذين كذبوا ثلاثة من الرسل وهددوهم بالرجم والتعذيب..

انظر كيف تنهمر كلماته بالنصح الشفيق في استرسال ينبيك أن الإيمان قد ملأ هذا القلب حتى صار ينبض حبا لله ولدينه..

"يا قوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون * وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون * أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون * إني إذًا لفي ضلال مبين * إني آمنت بربكم فاسمعون»..

كلمات منهمرة كالغيث.. لم يقطعها إلا أنهم قتلوه..

"قيل ادخل الجنة"..

فكأنه صار منعما فور قتله شهيدا ولم يضره بعد ذلك شيء، فاتصل إدخاله الجنة بآخر كلمة قالها داعيا إلى الله..

لكن قضيته لم تنتهِ هنا.. فقد أجاب نداء دخول الجنة جوابا يذيب القلوب المتحجرة.. «قال يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين»!..

ألا يذوب لهذه الكلمات جمود قلب يرى الناس يهلكون بالكفر والعصيان فلا يهتز له طرف ولا يفعل لنصرة دين الله شيئا؟

وهذا الرجل القوي القلب الرحيمه يحمل هم إيمان الطغاة ونجاتهم حتى وهو في الجنة!

يقول صاحب الكشاف: «وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه والتلطف في افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه، ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام؟» اهـ

فسبحان الله الذي أكرمه وأهلك الظالمين من بعده.. ورضي الله عن هذا الرجل المؤمن الصابر الذي قص الله علينا خبره وأبقى فينا كلماته ودعوته إلى يوم الدين..

الصافات

٧٥- ﴿قَالَ تَاللَّـهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾

من الأصحاب من سيوردك الهلاك إن لم تفارق طريقه، ويصعب على المرء أن يضبط مساحة تأثره بأصحابه بشكل محدد، فهناك قدر لا شعوري من التأثر ربما لا تلحظه أنت في نفسك وينبهك له من حولك.. فأنت تتأثر بطريقته في الكلام ونبرته في الضحك وألفاظه عند الحزن والفرح، فما بالك بما فوق ذلك من أفعال وأفكار؟..

فارق طريق البطالين فإنهم يكادون يُرْدونك!

ص

٧٦- (... وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٦٨﴾)

قال ابن عاشور: «فالمتكلف هو الذي يتطلب ما ليس له أو يدّعي علم ما لا يعلمه.» اهـ

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «يا أيها الناس من علم شيئا فليقل به ومن لا يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم؛ فإن الله قال لنبيكم صلى الله عليه وسلم: (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين)» اهـ

فاتخذ هذا شعارا، ولا تكن من المتكلفين.

الزمر

٧٧- (قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّـهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٤٦﴾)

تتجلى في سورة الزمر عظمة توحيد العبادة، وطمأنينة توحيد العبادة، وأثر العلم في العبادة، وجزاء من أفردوا الله بالعبادة..

في سورة الزمر نشهد شرف عبادة الله سبحانه، بطريقة القرآن العظيمة وهي ارتباط أحقية الله في العبادة بدلائل ربوبيته.. فمن خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر، ومن خلقنا من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها، ومن أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض، ومن يملك النفع والضر، ومن له الشفاعة جميعا، ومن يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، ومن يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، ومن له مقاليد السماوات والأرض وحده من يستحق العبادة..

نتلقى فيها أوامر العبادة «فاعبد الله»، «قل إني أمرت أن أعبد الله»، «قل الله أعبد»، «بل الله فاعبد»، ونسمع فيها نداء الانتماء الشريف «يا عباد الذين آمنوا»، «يا عبادي الذين أسرفوا» فنستجيب خاضعين محبين..

ويتوالى إخبار الله لنا بأننا عباده، «ولا يرضى لعباده الكفر»، «ذلك يخوف الله به عباده»، فنعرف كم هو قريب منا وقيوم علينا..

وفيها نرى مشاهد من أعظم مشاهد الآخرة، إذ يحط كل مسافر رحله، ويساق العباد كل إلى مستقره ويقال الحمدلله رب العالمين..

نتعلم من سورة الزمر أن عبادتنا لله هي أعظم لوازم العلم «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون»، وفيها غاية الكفاية «أليس الله بكاف عبده»، وهي وسيلة خير البشريات»فبشر عبادِ»..

حتى إذا جاءنا أعداء الله يريدون أن يصدونا عن عبادته، قابلهم منا استنكار العبد المستيقن: «أفغير الله تأمرونّي أعبد أيها الجاهلون»؟!

غافر

٧٨- (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾)

- لم تقتصر الآية على بيان استغفار الملائكة للمؤمنين، وإنما ذكر الله دعائهم مفصلا لما فيه من العظمة والتفضل.. فالمستغفرون هم حملة العرش ومن حوله من الملائكة بجلال قدرهم وعظمة صفتهم.. فلا شك أن دعائهم يناسب هذا الجلال، وهو من أرق أدعية القرآن لمن تأمله.

- أخبر الله تعالى أن الملائكة يستغفرون للذين آمنوا، مع أنهم يقولون "فاغفر للذين تابوا".. وفي ذلك إثبات لإيمان التائبين وأن التوبة من أجلى أماراته..

ومن اللطائف أن هؤلاء المستغفرين لا يذنبون أبدا، ومع ذلك ألهمهم الله الدعاء لمن أذنبوا ثم تابوا.. فما أشرف مقام التوبة، وما أعظم فضل الله على التائبين!

- في استحضار سعة رحمة الله وعلمه في هذا الموطن تمهيد لطلب المغفرة لهم بعد ذلك.. فإنه سبحانه قد وسع كل شيء علما ومن ذلك علمه بندمهم وإنابتهم، فلا جرم أنه سيشملهم برحمته لعلمه بحالهم هذا، لأنه كما وسع كل شيء علما فقد وسع كل شيء رحمة..

٧٩- (وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ... ﴿٢٧﴾)

تعوذ بالله من الكبر وأهله، فإنهم داء قبيح فتّاك لا ينجيك منهم إلا اللجوء إلى القوي العزيز سبحانه، والاحتماء بجنابه من شرهم.

فصلت

٨٠- (... وَلَـكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّـهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٢﴾)

من ظن بالله السوء هلك.. فإن هذا الظن السيء من أخطر ما يجرّيء المرء على قبيح الفعال ويورده سوء العاقبة، لأنه يخيل إليه فقدان الحسيب والرقيب، فيتمادى غير آسف على ما اقترف..

والمؤمن لا يظن بربه إلا كل كمال وخير، فهو إذا أذنب ندم وتاب، وإذا ذُكّر انتهى وتذكر لأنه يظن بالله تمام العلم والعظمة.. وإذا أحسن عرف أن الله ذا الإحسان لن يضيع إحسانه، وإذا دعا عرف أن سميع الدعاء سيعيد دعائه عليه بالخير في العاجل أو الآجل.. فهو يظن بالله الخير في كل الأحوال، والله الكريم عند ظن عبده، فأحسن الظن بالله تفز بالنجاة.

٨١- (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ... ﴿٣٥﴾)

في كل زمان نقرأ هذه الآية (سنريهم) لا (أريناهم)، فكل زمان يأتي، يأتي بجديد لصالح هذا الدين الأغر حتى إذا قرأناها قبيل قيام الساعة، سنرى حينها أيضا من الآيات ما يبين أن هذا الدين حق، وأن هذا القرآن حق..

الشورى

٨٢- آيتان في سورة الشورى تشعران بصدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم حقا.. وأتساءل في نفسي كيف تلقاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف بلغهما إن لم يكن حقا رسول الله؟

الأولى في قول الله سبحانه: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّـهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّـهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّـهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾)..

أي جلاء لحقيقة الرسالة هذا؟ يقول الله لنبيه أنه لو شاء لأنساه الوحي، فلا هو مفتر، ولا هو يستطيع أن يفتري!، فالله يمحو باطل المفترين ويمكّن لدعوة الصادقين، وما محمد صلى الله عليه وسلم إلا عبد الله ورسوله!

والثانية في قول الله سبحانه: (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾)..

أي إقرار للافتقار إلى الله هذا؟.. يقول الله لنبيه أنك قبل نزول الوحي لم تكن تعلم الكتب المنزلة ولا كنت تعرف شرائع الإسلام، ولكن هذا القرآن هدى للعباد، أنزل عليك لتدلهم على طريق الحق..

فكيف يخطر لشخص كاذب أن يقول هذا الكلام عن نفسه؟.. أن يقر بأنه لا يملك لنفسه شيئا، وبأنه لم يكن عالما بالكتاب والإيمان.. وأن يبلغ هذا الكلام للناس فيقرؤوه ويحفظوه عنه؟

فإنا نشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.. وأن القرآن كلام الله حقا.. ليس بمكذوب ولا بمفترى، ولا قاله بشر، وما هو بسحر ولا شعر.. وإنما وحي من الله، ونور يهدي به من يشاء من عباده.. فاللهم برحمتك لا تحرمنا هذا النور وذاك الهدى.

٨٣- (... وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾)

سورة الشورى سورة يتجلى فيها معنى ولاية الله لعباده، والفرق بين من تولاه الله ومن وكله إلى نفسه فضلّ ولم يعد له ولي من بعده..

انظر كيف يحصي الله أعمال من رضوا بولاية غيره؟ وانظر كيف أن الظالمين ما لهم من ولي؟

وانظر في هذا الاستنكار المهيب.. «أم اتخذوا من دونه أولياء»!.. هل جُنّ هؤلاء الناس أم ماذا دهاهم؟.. أيتركون ولاية الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، والذي تكاد السماوات أن يتفطرن من عظمته والذي تسبح الملائكة بحمده ويتولون غيره؟

ثم تأمل ذاك التقرير المؤكد «فالله هو الولي».. ولا ولي غيره على التحقيق، فكل من دونه عجزة مغلوبون لا يقدرون على شيء، وهو على كل شيء قدير..

ويأخذنا معنى الولاية إلى معنى الاطمئنان لما يفعله الولي.. فسورة الشورى سورة الطمأنينة إلى أقدار الله والرضا عنه في حكمه يقينا بحكمته البالغة..

فيها يخبرنا الله أنه لطيف بعباده، وأنه يرزق من يشاء، وأنه لا يقسم الأرزاق عن ضعف وعجز، فهو القوي الذي لا يُغلب.. لكنه يقيم الاختبار الدنيوي بحكمته، ليتم الجزاء الحق في الآخرة..

يخبرنا الله أنه لا يطردنا إن أخطأنا، وإنما يتقبل منا التوبة، ويمحو سيئاتنا، ويعلم ما نفعل من خير وشر فيجازينا..

يخبرنا أن ولايته لنا لا تقتصر على ما ندعوه به، وإنما يزيدنا من فضله.. وأن ما يمنعه عنا ليس تعذيبا لنا بالفقد، وإنما لأنه خبير بصير بنا، يعلم ما يصلحنا فيعطيناه، ويعلم ما يدفعنا نحو الظلم فيحجبه عنا، وأنه كما ينزل المطر فينجدنا به حين نترقب الهلاك، فهو يفرج عنا الكُرَب بعدما تجدب أرواحنا، فينشر رحمته ونحيا من جديد..

يخبرنا أن الدرجات السيئة التي نحصل عليها في جولات الحياة ليست سوى نتائج لأداء سيء، ومع ذلك فإنه لا يعاقبنا على كل أداء سيء، بل يعفو عن كثير من أخطائنا..

فيها يخبرنا أن الذرية هبة منه.. لا ينالها العبد بالقوة ولا بالتشهي، وإنما يهبها الله من يشاء ويمنعها عمن يشاء، وكل ذلك عن علم وقدرة.. لا يخفى عليه رغبة من منعه، وهو قادر على إعطائه، وإنما منعها عنه في وقت ما لحكمة ما..

فيها يخبرنا الولي سبحانه أنه لا يحب الظالمين، وأنهم يأتون في الآخرة «وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله».. ويخبرنا أن المظلوم له حق في استرداد ما سُلب منه، وأنه غير مؤاخَذ بذلك.. فمن يؤاخَذ حقا هو من يظلم الناس ويفسد في الأرض من دون وجه حق..

في هذه السورة يتعلم المؤمن أن يفرح بولاية ربه، ويطمئن لقضائه، ويوقن بحكمته، ويذعن لأمره.. فهو الولي الحميد.

الزخرف

٨٤- (وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾)

كل رغباتك الدنيوية التي تتألم لرحيلها عنك أو لرحيلك عنها وتركض نحو المزيد منها، ليست سوى متاع لا يدوم، ولا يقاس به مقدار صلاحك أو محبة الله لك؛ فإن سقوف الفضة، ومعارج الترف، واتساع المساكن، ونعومة الفرش، وكثرة الأموال وكل زخرف الدنيا.. ليس سوى عرَض زائل هيّن محدود القيمة، وأما الجزاء الحق، والعطاء الحق، فمقياسه الآخرة.. والآخرة عند ربك للمتقين.

٨٥- (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾)

نعيش أقسى انكسارات الخذلان حين تنقلب محبة المقربين منا عداوة وقت الاحتياج، فما أشد معاناة أخلاء السوء بتخلي رفاقهم عنهم في أشد أوقات المرء احتياجا على الإطلاق!

تخير خليلا لا يخذلك يوم النشور، تحرَّ في أصفيائك التقوى.

الدخان

٨٦- (وَما خَلَقنَا السَّماءَ وَالأَرضَ وَما بَينَهُما لاعِبينَ ﴿٦١﴾)

تذكر دوما أن وجودك ووجود الأشياء من حولك لم يكن عبثا، وأن تصاريف الأمور من حولك ليست خبط عشواء، وأن كل شيء صائر إلى الوعد الحق كما وجد بالحق أول مرة.. فاختر لنفسك ما تريد، فإن يوم الحق آت.

الجاثية

٨٧- (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ... ﴿٣٤﴾)

الجزاء من جنس العمل، وليس لأحد عند الله ضمان للنجاة بغير ما قدّم، فمن رام حسن الجزاء فليحسن العمل، ومن نسي الجزاء فترك العمل الصالح، تُرك في العذاب غير مقبول نداؤه، ولا مسموعة دعواته.. فاللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، لا تجعلنا ممن نسوا يوم اللقاء!

الأحقاف

٨٨- (... وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾)

بعض أهل الكبر يجعلون أنفسهم معيارا للحق، ويعتقدون أنهم النموذج المثالي للصلاح، فمن خالفهم رموه بالكذب والباطل زورا، ومن سبقهم في خير أثاروا اللغط حول مسعاه.

٨٩- (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ... ﴿٢٤﴾)

من شيم أهل الكفر أنهم يسيئون الفعل ولا يخشون العذاب، أما المؤمن فإنه يحاسب نفسه ويخشى عاقبة ذنوبه ولا يأمن مكر الله.

محمد

٩٠- (وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾)

من يكرهون أمر الله وحكمه وشرعته فهم للتعاسة أهل..

وما لهم لا يتعسون وهم يكرهون الهدى، والبشرى، والرحمة، والنور؟

والله ما بقي لمن كره ما أنزل الله من السعادة إلا ما تخدع به الدنيا أهلها ثم توردهم مهاوي الندم!

اللهم املأ قلوبنا حبا لما أنزلت من الهدى والنور.

٩١- (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾)

نقل الطبري رحمه الله في تفسيره: عن خالد بن معدان قال: ما من آدميٍّ إلا وله أربع أعين: عينان في رأسه لدنياه وما يصلحه من معيشته، وعينان في قلبه لدينه وما وعد الله من الغيب، فإذا أراد الله بعبد خيرا أبصرت عيناه اللتان في قلبه، وإذا أراد الله به غير ذلك طمس عليهما، فذلك قوله (أم على قلوب أقفالها). اهـ

ويقول القرطبي رحمه الله:

"وقال: على قلوب لأنه لو قال على قلوبهم لم يدخل قلب غيرهم في هذه الجملة. والمراد أم على قلوب هؤلاء وقلوب من كانوا بهذه الصفة أقفالها.» اهـ

قلتُ: فنعوذ بالله من هذه الصفة.. من تيه فقدان الفقه، ومن ظلمة حرمان التدبر، ونسأله سبحانه أن يفتح لنا قلوبا أوصدها شر ما فعلت فيغيثها ببركة القرآن.

الفتح

٩٢- (... وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿٢١﴾)

علامة فساد المرء وعنوان هلاكه هو أن يظن بالله ظن السوء.. فلما ظن المنافقون أن الله لن ينصر دينه وأن المؤمنين مغلوبون، أوقعهم ذلك في ذنب عظيم وهو التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم راحوا يكذبون لتبرير ما فعلوا، فجعل الله كشف حقيقة فعلهم قرآنا يُتلى لبيان غشهم وخداعهم، وما رأس ذلك كله إلا أنهم ظنوا بالله ورسوله والمؤمنين ظن السوء.

٩٣- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ... ﴿١١﴾)

قال القرطبي رحمه الله:

"وبالجملة فينبغي ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رث الحال أو ذا عاهة في بدنه أو غير لبيق في محادثته، فلعله أخلص ضميرا وأنقى قلبا ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله، والاستهزاء بمن عظمه الله... وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)، وهذا حديث عظيم يترتب عليه ألا يقطع بعيب أحد لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة، فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وصفا مذموما لا تصح معه تلك الأعمال. ولعل من رأينا عليه تفريطا أو معصية يعلم الله من قلبه وصفا محمودا يغفر له بسببه. فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية. ويترتب عليها عدم الغلو في تعظيم من رأينا عليه أفعالا صالحة، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالا سيئة. بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة، لا تلك الذات المسيئة. فتدبر هذا، فإنه نظر دقيق، وبالله التوفيق.» اهـ

قلتُ: فتأمل قوله رحمه الله «فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية»، وفي هذه الجملة توسط بين طرفين منتشرين في هذا العصر، أحدهما: يرى أن الأعمال الظاهرة لا اعتبار لها ولا بها، وهؤلاء ينزلون من ظاهره الإحسان والعدالة منزلة من ظاهره الإساءة والفسوق، وربما رفعوا أهل الإساءة على أهل العدل بدعوى أنهم (قد) يكون باطنهم الإحسان.

والآخر: يشدد في الحكم بالظاهر فيجزم بصلاح فلان وفساد فلان، وربما يصل الأمر ببعضهم أن يجزم بمصائرهم في الآخرة، كما يقولون (فلان لا يرد الجنة)..

وليس هذا ولا ذاك بمقصود الآية.. وإنما المقصود عدم الغلو فيمن ظاهره الإحسان حتى يُجزَم بعدم وقوع السوء منه، وعدم تحقير المسيء بحيث لا يُتصوَّر وقوع الخير منه، ويبقى ظاهر المرء أمارة ظنية في معاملته.. نسأل الله أن يصلح سرنا وعلانيتنا بما يرضيه عنا، والله أعلم.

ق

٩٤- ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٥٢﴾﴾

أولئك الذين يحجبون عن الناس خيرا يقصدونه، أو حقا يستحقونه.. أولئك الذين يأكلون أموال الناس ويخوضون في أعراضهم ويجرعونهم مرارات الأذى والعدوان، هل سمعوا هذا الوعيد؟!

٩٥- ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَـكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٧٢﴾﴾

تذكّر هذا التبرؤ كلما زين لك شيطانُك العصيان، تذكر حين يعدك أنه سيُخلفك، وحين يمنّيك أنه سيخذلك، وحين يسوغ لك الأعذار أنه أول من سيثبت عليك الجريمة وينفي عنك العذر.. فاحذر!

الذاريات

٩٦- ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

لا تكتم أنفاس روحك بنظرتك الجامدة للمخلوقات من حولك..

دعها تمتطي بساط التأمل في فسحة الكون..

تتنسّم عَرف الجمال، وتفتح عيون الدهشة، وتضيء بنور الاعتبار، وتترقى في معارج اليقين، لتغمرك ببهاء التسبيح وجلاله.

الطور

٩٧- (اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾) .. (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩١﴾)

لا أحد أعظم فرحا من المجتهد الذي يتلقى الجائزة جراء فوزه، ولا أعظم حسرة من الكسول الذي يرى المجتهد وهو يتلقى الجائزة..

فكيف إذا كانت الجائزة الجنة؟ وكيف إذا كان الكسول مسيئا مضيّعا معذبا؟

والله لو لم يكن عذابه إلا فوات النعيم لقتلته الحسرة، فكيف بمن عقابه نار يصلاها بسوء عمله!

اللهم برحمتك نستغيث، نعوذ بك من العذابين يا أرحم الراحمين!

النجم

٩٨- (أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾ فَلِلَّـهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾)

نحن لا نملك لأنفسنا شيئا في الحقيقة، نسعى ولا نعرف مقدار النتيجة، نحسب فيصفعنا الإخفاق، نحب ونفارق، نحاذر ولا نملك ضمانا بعدم الوقوع. لهذا دوما، نحتاج عون القادر، ولطف القيوم، وعناية المقيت، ورزق الغني، وتدبير العليم، وجبر الرفيق، وحمى الملك.. تبارك من له الآخرة والأولى.

القمر

٩٩- ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴿٤٢﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٥٢﴾﴾

يعلمنا القرآن أن الحق لا يلزم أن يقدمه أناس خارقون، فالنبي كان بشرا..

يعلمنا أن الحق لا يلازم الكثرة، فالنبي كان واحدا..

يعلمنا أن الحق لا يختص به وجهاء الناس وأغنيائهم، بل الله يصطفي له من يشاء من الصالحين.

الرحمن

١٠٠- ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٩٢﴾﴾

كل شؤون هذا الكون واقعة تحت تدبير الله سبحانه، لا يغفل عنها لحظة ولا يشغله منها شأن عن شأن.. يسأله الناس جميعًا فلا تختلط عنده مسألة إنسان بآخر، ويسيرون إليه جميعًا فلا يحل عنده عمل أحدهم محل غيره.. سبحانه وبحمده!

يقول الشيخ السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

"يغني فقيرا، ويجبر كسيرا، ويعطي قوما، ويمنع آخرين، ويميت ويحيي، ويرفع ويخفض، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلطه المسائل، ولا يبرمه إلحاح الملحين، ولا طول مسألة السائلين، فسبحان الكريم الوهاب، الذي عمت مواهبه أهل الأرض والسماوات، وعم لطفه جميع الخلق في كل الآنات واللحظات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء معصية العاصين، ولا استغناء الفقراء الجاهلين به وبكرمه، وهذه الشئون التي أخبر أنه تعالى كل يوم هو في شأن، هي تقاديره وتدابيره التي قدرها في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يمضيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضته حكمته، وهي أحكامه الدينية التي هي الأمر والنهي، والقدرية التي يجريها على عباده مدة مقامهم في هذه الدار، حتى إذا تمت هذه الخليقة وأفناهم الله تعالى وأراد تعالى أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء، ويريهم من عدله وفضله وكثرة إحسانه، ما به يعرفونه ويوحدونه، نقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان.» اهـ

الواقعة

١٠١- (وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾)

في سورة الواقعة ننتقل من مشاهد الدنيا إلى مشاهد الآخرة، ومن هوان الدنيا إلى هول الآخرة ومن درجات الدنيا إلى درجات الآخرة، ومن جزاءات الدنيا إلى جزاءات الآخرة..

تشهد في هذه السورة رجة الأرض وتفتت الجبال، حتى تصير الأرض بلا مَعلم.. لا قصور، لا أبراج، لا تباهي بالأملاك والدور..

هناك ننقسم إلى فئات أخرى، فلا يقال هؤلاء الكبراء أو الرؤساء أو السياسيون.. هناك نكون فقط أزواجا ثلاثة، صفوتنا هم السابقون، من تفوقوا بالعمل لهذا المشهد.. والناجحون هم أصحاب اليمين، والفاشلون هم أصحاب الشمال..

في سورة الواقعة نتيقن بصدق هذا المشهد من ائتمان المخبر به وقدرته.. فهو الذي أنشأنا، من أصدق منه حين يخبرنا؟ ومن أقدر منه على الإنفاذ حين يبشرنا وينذرنا؟..

إن الذي بدأ الخلق قادر على أن يعيده، إنه يحيي كما يميت.. ينبت الزرع زادا. ينزل الماء عذبا.. ينشيء الوقود متاعا.. وهو قادر على أن يجعل الزاد حطاما والعذب أجاجا فلا تستقيم حياة لبشر.. فما أعظم الإعجاز في يوم الإنسان البسيط، في مأكله ومشربه ومتاعه!

وما أعظم مبدع هذا كله، وما أعظم ما يقول.. سبحان ربنا العظيم!

ذلك الرب العظيم يقسم قسَما عظيما.. يقسم الله العظيم لنا نحن الضعفاء العجزة، أن هذا الكلام حق منزل من عنده..

أبعد هذا البيان يجحده البشر؟.. يقابلون إحسان الخلق والرزق والتدبير والإعانة بتكذيب وعد الخالق الرازق؟

لا مفر إذًا من مجيء المشهد الأخير في عالَم الشهادة، والأول في عالَم الغيب.. المشهد الذي نعرفه ونجهله في آن واحد.. المشهد الذي تلتقي فيه نهاية التكذيب ببداية التصديق، ونهاية الغطرسة ببداية الافتقار.. مشهد خروج الروح، إن لم يكن طوعا فكرهًا..

إن ما كان في أول السورة خبرا يصبح في آخرها الآن معايَنة. حينها يرى كل امريء حقيقة مآله إما مع المقربين أو أصحاب اليمين أو المكذبين الضالين، فيا ترى من أي الأزواج الثلاثة سنكون؟!

الحديد

١٠٢- (... وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾)

حينما يغيب عنا معنى زوال الدنيا نقع في مأزق الحزن، ونتورط في سكرة الفخر..

فنيران الفقد التي تلهبك تنبع من اعتقاد صامت في لحظة ما بأن المفقود خالد، وزهوات الفخر التي تمسّك تسولها غفلة عن أنك وما تفخر به مرهونان بقانون الفناء..

شبابك فان.. جمالك فان.. عبقريتك صفحة سيطويها التاريخ..

ستموت في نهاية المطاف!

أتأسف بعد ذلك على صديق هجرك؟ أو تزهو بعد ذلك بتابع يتمنى رضاك؟..

أنت هنا في مهمة كدٍّ تسعى فيها نحو رزقك المكتوب.. يهونها وليُّك بنسمات لطفه، ويبشرك فيها بأبعاض الجزاء.. لا تنس ذلك طول عمرك.

المجادلة

١٠٣- (... فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّـهُ لَكُمْ ... ﴿١١﴾)

يعلمنا الله أن تكاثر الخير يتحقق بمشاركته لا بمحاولة الاستئثار به. ذلك أن فسحة الخير أرحب من أن يستأثر بها إنسان واحد، وهي لا تضيق بكثرة قاصديها؛ لأن من يفسح للعباد هو الله، والله هو الواسع.. من يسع غناه مفاقر عباده.

الحشر

١٠٤- (... وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّـهِ فَأَتَاهُمُ اللَّـهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ... ﴿٢﴾)

لا عمل للأسباب دون خالق الأسباب سبحانه، ولا شيء في الكون يجري إلا بأمره وتدبيره، فلا الحصون تمنع، ولا الجبال تعصم، ولا الذكاء ينفع، ولا المال يغني إلا بأمره. لذلك دوما.. من اعتمد على الأسباب من دون الله تجرع علقم الخذلان من حيث لا يحتسب!

١٠٥- (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ ...﴿٦١﴾)

بعض البشر معجونون بهذه الصفة الشيطانية الخسيسة، يغوونك ثم ينسحبون.. يورِّطونك ثم يتبرؤون.. يعدونك ثم يخلفون، ويوقعون بك ثم يشمتون.

احذر رفاق السوء!

الممتحنة

١٠٦- (... تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ... ﴿١﴾)

حينما تتعلق القضية بأوامر الله سبحانه، لا تفكر في أي محاولة للخداع؛ لأن الرقيب عليك يستوي عنده علم الظاهر والباطن.. لا تخفى عليه خواطرك، ولن تخدعه مراوغاتك السرّية.

١٠٧- (... فَامْتَحِنُوهُنَّ ... ﴿١٠﴾)

بوصلة الولاء وامتحان الإيمان..

تسمى سورة الممتحنة، بكسر الحاء وفتحها.. فهي «الممتحِنة» لأن آياتها تمتحن إيمان كل منا، وهي «الممتحَنة» إشارة إلى الفتاة البطلة، الصحابية الجليلة أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط.

في سورة الممتحنة، نتعلم أن الولاء لله سبحانه وتعالى فوق كل ولاء، وأن أعداءنا هم أعداء دينه. ونتربى على أن لا ود لمن يحارب دين الله ولا موالاة لأعدائه، في السر والعلانية على السواء.

ففي بداية السورة «لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء»، وفي نهايتها "لا تتولوا قوما غضب الله عليهم".. وبينهما ضبط لبوصلة هذا الأصل العظيم في الدين، أصل الولاء والبراء. حيث ندرك من خلال عظات الله المحكمة وأوامره المعظمة أن مودة الكافرين لن تنفعنا، فهم يعدّوننا أعداء لهم ويتمنون أن نكفر بالله.. كما أن هذه المودة -ولو كان الذين نطلب ودهم من الكفار أقاربنا أو أبناءنا- لن تنفعنا يوم القيامة، فعلام نخالف أمر الله؟

ولما كان هذا أصلا في عقيدتنا وتجريد توحيدنا، أخبرنا الله سبحانه بمثال تطبيقي عنه لنتأسى به، ذلك الذي يتمثل في سيدِنا إبراهيم عليه السلام ومن آمنوا معه، حينما أعلنوا لقومهم ولاءهم لله وبراءهم من الكفر به.. متوكلين على الله ومنيبين إليه.

لكن هذا التبرؤ الشرعي ليس همجية رعناء.. يخبرنا الله أن البراءة من أعداءه يحكمها قانون «البر» لمن لا يقاتلوننا، ونبذ الموالاة لمن يفعلون.. والعدل أساس لا ينهدم فالله «يحب المقسطين»..

وهكذا ينبغي لكل منا أن يمتحن إيمانه حين يستحسن موالاة أعداء ربه، أو يبحث لذلك عن تبريرات واهية. فالإيمان ليس مجرد ادعاء ترددده ألسن غافلة عن حقيقته ومقتضاه.. الإيمان تبريز يجلّيه الامتحان، فمن يرجو الله واليوم الآخر سيقدم برهان صدقه «ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد».. وهاكَ ممتحَنة قدمت صدقا عند الامتحان..

فتاة قرشية لا زوج لها، تخرج في صحراء قاحلة وحدها لتهاجر إلى الله ورسوله.. حتى إذا وصلت بعد ثمان ليال من السفر، وجدت أخويها قد تبعاها ليعيداها إلى الكفار بحسب شرط صلح الحديبية.. فماذا قالت تلك التي لم توالِ إلا ربها ولم تخرج إلا طالبة حمى دينه؟

قالت رضي الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

"أتردني يا رسول الله إلى الكفار يفتنوني عن ديني ولا صبر لي، وحال النساء في الضعف ما قد علمت؟»

لقد اطلع الله على هذا القلب الصادق، ورحم ضعف امرأة غريبة بإيمانها بين قوم كافرين، فأنزل فيها آية الامتحان.. ليس بسماحه باستثناء النساء من الشرط فحسب، وإنما بحكم يزدان بالعدل في دين قوامه العدل، حيث يعطى مهرها لزوجها «وآتوهم ما أنفقوا».. «وسئلوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا».. ذلكم حكم الله!

هكذا لطف الله سبحانه بهذه الممتحنة ومن تلاها من النساء المهاجرات، كما لطف بالمجادلة الحائرة ومن يشبهن مسألتها فأنزل آية الظهار.. فمن للضعفاء والغرباء إلاك يارب!

هكذا نتعلم في سورة الممتحنة أن للإيمان أمارات صدق، لا يُكتفى فيها بقطع المفاوز للهجرة، وإنما يضاف سؤال آخر:

"آلله ما أخرجكن إلا حب الله ورسوله والإسلام! ما خرجتن لزوج ولا مال؟!".. فإنما الأعمال بالنيات..

كما نتعلم منها في آية بيعة النساء أن للإيمان لوازم يجب أن يعيها القلب ويؤديها..

فماذا عنا إذن؟.. هل تنضبط بوصلة ولائنا لله سبحانه، فنجتاز امتحان الإيمان؟

الصف

١٠٨- (كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّـهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾)

أي عظمة لقدر الكلمة عند الله سبحانه؟ وأي ميثاق هذا الذي يعقده المؤمن على نفسه بأقواله؟!..

يعلمنا الله أن المؤمن لا ينبغي أن يلقي الكلام جزافا، بل يكون كلامه عنوانا لفعله، فهو إذا حدَّث صدق، وإذا وعد أوفى، وإذا عزم أتمَّ.

الجمعة

١٠٩- (قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّـهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾)

إذا تيقن الإنسان من تحقق نجاته ورفعة درجته، فلماذا يتمسك بالدنيا؟

إن العبد الصالح لا يحرص على الحياة إلا رجاء أن يعمل حسنة تنجيه وترفعه أو يتوب من ذنب يرديه ويهلكه، ولا يخاف الموت إلا لما يخشى من عواقب ما اقترف، أو من فوات رفعته في درجات الجنة. ولهذا نهينا عن تمني الموت، لأننا لا ندري هل يكون موتنا أنفع لنا عند الله من الحياة أم تكون الحياة أنفع، وأرشدنا النبي صلى الله عليه وسلم بدلا من ذلك إلى الدعاء: «اللهم أحيني ما علمتَ الحياة خيرا لي، وتوفني ما علمتَ الوفاة خيرا لي». وأما من ضمن الرفعة والنعيم الخالص في الآخرة -كما زعم اليهود اختصاصهم بذلك-، لم يؤثر على ذلك البقاءَ في أكدار الدنيا وفتنها وكرباتها. وهكذا كان أمرهم بتمني الموت كاشفا زيف هذا الضمان.

المنافقون

١١٠- (... كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ... ﴿٤﴾)

من الناس برَّاقون لكنهم مزيفون، ألفاظ بلا معنى.. صور بلا مضمون. لا تنخدع بقوة الأجسام وحسن المنظر وبيان القول، فقد يقال للرجل «ما أجلده؟، ما أظرفه؟، ما أعقله؟.. وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان»!

التغابن

١١١- (... فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّـهُ ... ﴿٦﴾)

يظن المعرضون عن الدين أنهم ينالون منه، لا والله ما نالوا منه ولن يفعلوا.. الله غني عن إيمان الكافرين، وإن كفر أهل الأرض جميعا فهو غني عنهم سبحانه وتعالى، والفقير الذي يعرض عن الغني هو الخاسر.

الطلاق

١١٢- (... قَدْ جَعَلَ اللَّـهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾)

في سورة الطلاق نخلع كل عباءات تدبيرنا خاضعين لأوامر الله سبحانه وتعالى.. ليس لنا في أخص علاقاتنا أن نتجاوز «القدر» الذي جعله الله لنا..

نشهد في سورة الطلاق أن الرجل راع مسؤول، يخاطبه الله بشأن المرأة، فهو من بيده كلمة الطلاق، وبيده المراجعة، وعليه واجب السكنى والنفقة.. كما نشهد أنه عبد مأمور وليس صاحب سلطة مطلقة، فهو لا يطلق وقتما شاء ولا كيفما شاء بل يأمره الله «فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة»، «وأشهدوا ذوي عدل»، «أسكنوهن»، «آتوهن أجورهن»، «أنفقوا عليهن».. وينهاه «لا تخرجوهن»، «ولا تضاروهن»..

في هذه السورة يتأكد لنا مبدأ مصاحبة المعروف بأداء الحقوق وحسن المعاملة في الإمساك أو الفراق على السواء «فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف»، وحتى بعد الفراق في الحديث بشأن الأولاد «وأتمروا بينكم بمعروف».. فلا مجال للظلم أو سوء الخلق أو الضرار، لا سيما والمذكور هنا ليس مجرد خبر يتلى علينا، بل «تلك حدود الله»، و»ذلك أمر الله أنزله» إلينا..

وبهذا نعرف حقا أن التقوى ليست مجرد عبارات تُتداول في مجالس الوعظ، بل إن حقيقتها تظهر في المواقف الشديدة.. في موطن من أجلِّ مواطن الخلاف والفراق كالطلاق.. تحضر التقوى بالأمر بها «واتقوا الله ربكم»، «فاتقوا الله يا أولي الألباب»، وبالحث عليها «ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه..»، وبالترغيب فيها «ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا»..

فيها تحذير من مخالفة أوامر الله لأن هذا تشريعه «وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه»، فإذا نظرنا إلى الأمم التي ظلمت وتعدَّت، فحاسبها الله حسابا شديدا وعذبها عذابا نكرا.. عرفنا أنه علينا ألا نكون مثلهم بعدما أنزل الله إلينا هذا القرآن على رسول يخبرنا أوامر الله ونواهيه لنخرج بها من ظلمات الحيرة حول معايير الحقوق والواجبات إلى نور تشريع إلهي مهيمن على كلا الزوجين..

وفيها تتجلى رحمة الله بالنساء الكسيرات كما أخبر نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم «وكسرها طلاقها»، وذلك بتشريع العدة في بيت الزوج وعلى نفقته وسماه الله سبحانه بيتا لها «من بيوتهن»، لعل ثورة الغضب تنطفيء فيعاودان عهدهما بخير، وإلا فلا تكون قد نُزعَت من حياتها فجأة.. بل تتوفر لها فرصة للتواؤم مع الوضع الجديد..

كما تتجلى رحمة الله بالأزواج، فإذا كان أمرهم بتوفير السكن والنفقة للمطلقة طلاقا رجعيا، أو بالإنفاق على الحامل مطلقا، وأداء سائر حقوق المرأة، فإنه سبحانه لم يكلفهم ما لا يطيقون، بل قال «من وجدكم»، فبقدر ما يتمكن الرجل ينفق، لأن الله لا يكلف نفسا إلا ما آتاها.. شريطة ألا يتوانى أو يخادع في أداء الحقوق، فقد قال سبحانه «لينفق ذو سعة من سعته ومن قُدر عليه رزقه (فلينفق) مما آتاه الله».. ولم يُعفِ المقدورَ عليه رزقُه من الإنفاق.. لكنه يقول له -وليس أصدق من الله قيلا- أنه سيجعل له بعد هذا العسر يُسرًا جزاء أدائه الحقوق المفروضة..

تعلمت من سورة الطلاق أن أقدار الله نافذة على الناس جميعا بما تشتهيه نفوسهم أو تكرهه، لكن من يركن إلى جنب الله مسلِّما له أمره فهو موعود بالكفاية، والله لا يخلف وعده..

تعلمت منها أن شرع الله هو أعظم القوانين قاطبة، لأنه تشريع الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن، لا تخفى عليه منهن خافية ولا يعجزه فيهن أحد ولا شيء، فيدبر شؤونهن عن تمام علم وقدرة، وما سواه من القضاة يعتريهم الجهل والعجز.. ومن رضي بالجاهل العاجز دون العليم القدير فهو أحمق.

التحريم

١١٣- (قَدْ فَرَضَ اللَّـهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّـهُ مَوْلَاكُمْ ... ﴿٢﴾)

لا يرفع الله عنا ولايته حتى حينما نضيّق على أنفسنا ونستجلب لها العنَت، ولو شاء لجعل اليمين واجب التنفيذ حتى وإن أراد الحالف أن يتحلل منه، فانظر إلى تشريع الله لتبصر كيف أنه سبحانه أرحم بك من نفسك.

الملك

١١٤- (أَمَّنْ هَـٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ... ﴿١٢﴾)

مهما تهيأت لك أسباب الرزق على تمامها، لن تحصّله إذا أراد الله منعه عنك..
انظر إلى المتلهف لشربة ماء لا ينالها بسبب مرضه رغم ثروته الطائلة، وانظر إلى الحاذق يطلب المال فلا يحوزه رغم ذكائه، وانظر إلى جميلة المنظر حسنة الأخلاق لم يطرق بابها خاطب، وانظر إلى ذي الحصن المنيع يموت بين عصابته، وانظر إلى أبواب الطاعات المفتوحة اليسيرة كيف يزهد الناس فيها.. انظر في كل ذلك وتعبد لربك باسمه الرزاق، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

القلم

١١٥- (وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾)

اتهم المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنون فأقسم الله على تبرئته، ثم وعده بالأجر الجزيل..

مهما كانت عظمة الإنسان أو قوته النفسية، يظل وسط مشاق الحياة ومتاعبها بحاجة إلى بشرى تصبّره وتقشع عنه سواد الهموم.. فبشّروا المتعبين بالأجر.. بشّروا بشّركم الله.

الحاقة

١١٦- (وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾)

أعظم الحسرة أن يكون الكنز معك ثم تعيش فقيرا..

أن تكون أبواب الفوز والفلاح والسعادة مشرعة أمامك فتخونك أقدامك ولا تلجها..

أعظم الحسرة أن يكون القرآن بين يديك ثم تضل السبيل!

المعارج

١١٧- (فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾)

أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على من سألوه تعجيل العذاب..

في المهام الرسالية قد لا تحتاج بعد استيفاء البيان مزيدا من الجدالات، لكنك دوما تحتاج مزيدا من الصبر!

نوح

١١٨- (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾)

يا للدعوة إلى الحق من حِمل ثقيل!

الدعوة إلى الله ليست نشاطا في أوقات الفراغ.. إنها رسالة حياة، ومشروع عمر.. إنها حديث السر والعلانية، ومجازاة الصد بالصبر، ومثابرة الليل والنهار!

الجن

١١٩- (... فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿٣١﴾)

الإيمان بالله سكينة واطمئنان..

قد يزن الناس جهدك فيُخسرون، إما ظلما وإما جهلا.. أما عند الله فإحسان الخفاء ليس ضائعًا، وبسمات الصبر ليست هباء.. مجاهدتك لنفسك محفوظة، وأنت مأجور حتى بالشوكة تشاكها، وبالكلمة تقولها.. عند الله لا ضياع ولا خوف.. عنده سبحانه لا بخس ولا رهق..

المزمل

١٢٠- (... وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾)

من معاني التبتُّل: الانقطاع والإخلاص. ومنه قيل لمريم عليها السلام «البتول» لانقطاعها عن شواغل الدنيا إلى الله.

مهما كانت شواغلك الدنيوية المختلطة والمتشابكة، لا تحرم نفسك من الانقطاع لعبادة خالصة لله؛ إذ لا أحد أحق أن تفرغ نفسك وتخلصها إليه من ربك، وما تنشغل به من الدنيا بيد من تتفرغ لعبادته.. اقطع نفسك من الدنيا والخلق، وانعم بمناجاة الخالق، فثَمَّ الخير الصافي والدواء الشافي والعطاء الكافي. وكان ابن زيد رحمه الله يقول: تبتَّل، فحبَّذا التبتُّلُ إلى الله!

المدثر

١٢١- (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾)

من أسباب العذاب أن يتلقى المرء الباطل بلسانه، وأن يتكلم بما لا يعلم. وكم يهون هذا في أنظار المسلمين اليوم! فكلما رأوا متبوعا يخوض في أمر خاضوا فيه معه إما لجهل وإما لهوى وإما لحظوة موهومة، وكل ذلك مذموم في دين الله بل هو من أسباب العذاب في النار أعاذنا الله منها. وكثير من هذا الخوض لا يحقق للخائض ما يرجوه من المنافع وإن كانت حقيرة، بل من بؤس حاله أن يكون متبوعه أول من يزدريه، فهو في هذه الحال خائب المسعى في العاجل والآجل. نسأل الله العفو والسلامة والعافية.

القيامة

١٢٢- (بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾)

غياب مشاهد الآخرة عن الإنسان أو استبعاده لها أو تكذيبه بها من أسباب الفجور، فمن أطال الأمل وظن أنه بمنأى عن الحساب أجَّل التوبة وأساء العمل. فلا ينبغي للمسلم أن ينخرط في الدنيا دون تذكير بالآخرة وإحياء لمشاهدها في قلبه بما يجعله وجلا من الذنوب ومقبلا على الطاعات، فإن في هذا المعوَّل على فلاحه ونجاته.

الإنسان

١٢٣- (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾)

ما لنا نحب أن يمدح الناس ذواتنا بما فعلنا -وأحيانا- بما لم نفعل، ونتباهى بما لدينا من الدنيا كأننا نملكها منذ الأزل أو إلى الأبد!..

تلك «الأنا» التي لا تكف عن التعالي لابد أن تتذكر دوما أنها في زمان ما لم يكن لها نباهة ولا شأن ولا ملك.. لم تكن شيئا مذكورا، فعلام الكبر؟!

المرسلات

١٢٤- (أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿٧١﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٨١﴾)

كل باغ متغطرس مجرم سيهلك عاجلا أو آجلا.. ولو تبصر الإنسان بمآله لما طاوعته نفسه في الظلم والعناد..

في هذه الآيات المهيبة إنذار لكل متكبر معاند بأنه غير معجز يتجه نحو هلاكه، وفيها تبشير للمؤمنين وتثبيت لهم، فالباطل دوما إلى زوال، والحق شمس لا تحجبه أيدي الأقزام، يسخر الله له أهله في كل زمان ومكان.. نسأل الله أن يجعلنا من أهله.

النبأ

١٢٥- (لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾)

من النعيم أن يبتعد الإنسان عن الباطل والكذب، فسماع الباطل يخدش الأذن وينال من سلام النفس، وسماع الكذب يفسد القلب والعقل.. ومن تجافى عن ذلك فقد حاز ضربا من النعيم.. ولهذا كان ذلك حال أهل الجنة الطيبين، لا يسمعون إلا كل طيب.

النازعات

١٢٦- (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾)

شأن الآخرة عظيم مهيب، عنده تتصاغر المصائب ويذهَل الناس عن المطالب. فلا ترفع فوق الآخرة همًّا ولا تقدم عليها رغبة؛ فإن سعادتها تفوق كل رغبة، وهولها يشغل عن كل هم.

عبس

١٢٧- بين (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴿٣﴾) وبين (وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ﴿٧﴾)

يؤسس القرآن منهجا عظيما في الدعوة إلى الله وهو أنه لا ينبغي الإعراض عمن يطلب التعلم والإقبال على من يرفضه بدافع أن هذا سيكون أنفع للدين من ذاك.. فليست تزكية نفس المُعرض وإن كان وجيها في الناس بأفضل من تزكية نفس المقبل وإن كان من بسطاءهم.. بل المقبل أولى من المعرِض حتى وإن تعلقت نفس الداعية بالثاني.. وخاطر المقبل أولى أن يُجبَر، بينما يذهب المعرض إلى حيث أراد غير مأسوف عليه وغير ضار الدين شيئا، فالله غني عن العالمين.

التكوير

١٢٨- (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾)

لا ينتفع بالقرآن إلا من كان راغبا في الاستقامة، وعلى قدر رغبة الإنسان في الاستقامة يكون انتفاعه بتذكرة القرآن ونوره. وأما من آثر سلوك الطرق المعوجَّة ولم يطلب من القرآن الهدى والنور فإن القرآن يكون حجة عليه.

يقول الإمام الطبري: «فجعل ذلك تعالى ذكره ذكرا لمن شاء من العالمين أن يستقيم، ولم يجعله ذكرا لجميعهم، فاللام في قوله (لِمَن شَاءَ مِنكُم) إبدال من اللام في للعالمين.» اهـ

الانفطار

١٢٩- (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾)

في ذلك اليوم تنكشف الحقائق التي كانت تشتبه على الناس على تمامها. فالأمر لله في كل وقت، لكنه في ذلك اليوم لا يشتبه في كونه لا ينازعه فيه أحد..

تنجلي الغشاوات التي سولت التعلق بالخلق، والاحتماء بقواهم، والاستغناء بملكهم..

فيدرك الناس ضآلة من تمرغوا على أعتاب وصالهم، وعجز من ظنوا في قوتهم الغلبة، وفاقة من ظنوهم يملكون..

فما أسعد من تبصر المآل ووحّد الوجهة، واحتمى بالملك الحق!

المطففين

١٣٠- (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾)

ما أعظم الإسلام!.. دين العدل والحق..

وإذا كان هذا شأن العدل في ديننا في الأمور التي قد تصغر في أعين الناس من كيل ووزن، فكيف بالنهب والاعتداء والجشع والاستبداد في سائر معاملات الناس!

وما ألطف ما جاد به الشيخ السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات إذ يقول:

"ودلت الآية الكريمة على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له، يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات، بل يدخل في عموم هذا الحجج والمقالات، فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد منهما يحرص على ماله من الحجج، فيجب عليه أيضًا أن يبين ما لخصمه من الحجج التي لا يعلمها، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الموضع يعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق لكل خير." اهـ

١٣١- (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾)

لا يغرنك سخرية أعداء الدين من المؤمنين ومن إقامة شعائر الدين. ولا يثنين لمزهم عزمك عن طاعة الله؛ فالسعيد من يضحك في النهاية!

الانشقاق

١٣٢- (إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٣١﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿٤١﴾)

الأسوأ من العصيان أن يفرح الإنسان بالوقوع في المعاصي ويأمن عواقبها، وهذه سمة أهل الكفر والضلال. بينما يخشى المؤمنون عواقب زلاتهم وهفواتهم مع اجتهادهم في الإحسان، ولهذا يقولون يوم القيامة «إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين* فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم»، وهكذا تجري سنة الله بأن لا يجمع على عبده أمنين ولا خوفين.

البروج

١٣٣- (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّـهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾)

أحيانا تكون النقمة على المرء بسبب أنه عاقل وسط سفهاء، أو طيب وسط خبيثين، أو عالم وسط جهال، أو خيّر وسط أشرار.

أحيانا تكون تهمتك هي صلاحك، فثمَّ طغاة لا يستبشرون إلا بالفساد..

هنا تصمد النفوس الكبيرة، من يصقل معادنهم لهيبُ الغربة.

اللهم انصر إخواننا المستضعفين في كل بقاع الأرض.

الطارق

١٣٤- (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾)

يقولون في الدنيا، إنجازات المرء تنطق عنه وبها يُعرف.. أما أمر الآخرة فمتجاوز لهذا الحد..

هنا تسقط كل الأقنعة،

لا أحد يمكنه أن يداري أو يكذب.. لا أحد يمكنه أن يعرّض أو يخدع.. هنا لا يبقى معك إلا ذاتك.. وخلواتك.. وتدبيرك.. وظنونك..

هنا فقط.. سرائرك تنطق عنك!

الأعلى

١٣٥- (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٦١﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧١﴾)

وصف الله سبحانه ما في الآخرة من العطاء والجزاء بأهم صفتين يبحث عنهما الإنسان في أي شيء يملكه: الجودة، والبقاء..

ولا يكاد العاقل يشك في أن ما يملكه في الدنيا مهما كان جيدا فهو مفتقر إلى البقاء، فكيف وجودته متفاوتة وهي في أعلى مراتبها لا ترقى إلى أقل عطاءات الآخرة؟!..

لكن -كما ذكر بعض العلماء- عُجلت الدنيا وأخرت الآخرة، فمال الناس إلى الدنيا. وفي هذا لطيفة جليلة وهي أن الإنسان لا يؤثر شيئا على آخر بحكم العقل وحده، بل تتدخل في ذلك طبائع النفس ومنها العجلة، فإذا كان الطبع أقوى حجَب العقل عن رؤية الحجة الواضحة فمال الإنسان إلى مراد طبعه، وإذا كان العقل أقوى ردَّ الطبع إلى الحجة الصحيحة الواضحة، فلا يفعل الإنسان ما يخالفها، بل يتحمل ألم المجاهدة في سبيلها.. والسعيد من لم يذل عقله لسطوة نفسه.

الغاشية

١٣٦- (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾)

قال قتادة: «تكبرت في الدنيا عن طاعة الله، فأعملها وأنصبها في النار!» اهـ

تلك أشغال شاقة، ولكن في النار.. فمن يقوى على النار حتى يقوى على العمل والنصب فيها؟!

ما أهون كل عمل ينجي من عذاب الله لو فقه الإنسان وعقل، وما أبخس كل لذة يكون جزاؤها ذلك العمل والنصَب يوم القيامة!

لكنها حماقة الكبر.. فاللهم إنا نعوذ بك من الكبر!

نجنا وارحمنا ولا تأخذنا بعذاب ولا تهلكنا بذنب ولا تحرمنا شرف طاعتك وعبادتك.. يارب!

الفجر

١٣٧- (فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾)

كرامة العبد عند الله لا تكون بإكثار ماله، وهوانه عليه لا يكون بإنقاصه.. بل الكرامة والهوان متعلقهما ما يقابل به العبد العطاء والمنع من العبادة بالشكر والصبر، وما يتصرف به العبد مع خلق الله تعالى -لا سيما الضعفاء وأصحاب الحاجات كاليتيم والمسكين- من الرحمة أو القسوة، ومع المنافع الدنيوية من القناعة أو الجشع.. ذاك هو المعيار وإن زعم بعض الناس خلافه، ومن يهن الله فما له من مكرم!

البلد

١٣٨- (أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾)

يستطيل الإنسان بقدراته، ويتباهى بأمواله، ويفجر بشهواته، ويظلم بمكانته وجاهه.. ويتناسى أنه مهما تعاظم فهو حقير عاجز أمام الكبير القادر..

يقعده همّ، وتقتله غصة، ويهدّ بنيانه فيروس..

تذكر هذا دوما حين تعميك سلطتك، أو تنتفش نفسك بين جنبيك..

الله يقدر عليك!

عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: «كنتُ أضرِب غلامًا لي بالسَّوط، فسمعتُ صوتًا من خلفي: (اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود)، فلم أفهم الصوت من الغضب، فلمَّا دنا مِنِّي إذا هو رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو يقول: (اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود)، فسقط السَّوْطُ من يدي من هَيْبَتِه،

فقال: (اعلم أبا مسعود أنَّ اللهَ أقدَرُ عليك منك على هذا الغلام)،

فقلت: يا رسول الله، هو حُرٌّ لوجه الله،

فقال صلى الله عليه وسلم: (أمَا لو لم تفعل للفحتْك النارُ، أو لمسَّتْك النار)، فقلت: والذي بعثك بالحقِّ، لا أضرب عبدًا بعده أبدًا، فما ضربت مملوكًا لي بعد ذلك اليوم»

رواه مسلم.

١٣٩- ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾

قال القرطبي رحمه الله: «والاقتحام: الرمي بالنفس في شيء من غير روية، يقال منه: قحم في الأمر قحوما: أي رمى بنفسه فيه من غير روية.» اهـ

في الذنب المتكرر الذي يضعفك، والنفس الشحيحة التي تقعدك عن الصدقة، والعين الآبقة التي تجرك إلى المحرمات، واللسان العجول الذي يسابقك إلى الغيبة.. في مسابقة كل شهوة محرمة إليك وتفلت كل طاعة عظيمة منك = عقبة بينك وبين الجنة لا يكفي أن تسير فيها بخطى عرجاء.. بل تقدم، واقتحمها!

الشمس

١٤٠- ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾

وصف الله الطائع بأنه يزكي نفسه، والعاصي بأنه يدسيها.. فالطاعة تنمي صاحبها وتطهره وتعلي قدره، والمعصية تجعله في خمول وسفول وتضاؤل. والنفس التي سواها الله حقها على صاحبها أن تطهر وتنمو بالطاعة، لا أن تدنس وتتضاءل بالمعصية؛ ولذا كثيرا ما يوصف العاصي في القرآن بأنه "ظالم لنفسه"، لأنه حرمها الخير والبركة والنماء واختار لها السفول والخمول والضعة.

اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها.. أنت وليها ومولاها.

الليل

١٤١- ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾﴾

ضع هذا السؤال نصب عينيك في كل شيء تنشغل به في الدنيا، ترشد.

ماذا يغني عنك مالك، ولدك، علمك، جاهك، شهرتك، ذكاؤك، جمالك، قوتك.. عندما تموت؟.. إن هذا يصرف عن العبد الغرور، ويجعله حريصا على استثمار كل عطاء دنيوي في النفع الأخروي، لا في الصد عن الحق أو مجرد الخوض واللعب. هكذا المعيار الأخروي دوما، يضبط لنا البوصلة.

الضحى

١٤٢- (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾)

من أعظم الأسباب التي تهون بها هموم الإنسان وكرباته، أن يعدِّد نعم الله عليه.

إن تعداد النعم بريد يوقظ في قلب المرء روح الشكر فيسلم، ويذكّره بأناه الأولى فلا يظلم، ويحميه من سطوة الأحزان، ويورثه الرضا والاطمئنان.

اجعلوا لأنفسكم أورادا من الشكر، تسردون فيها بعض نعم الله التي لا تحصى، وتحمدونه عليها، وتحدثون بها من تحبون.

الشرح

١٤٣- (وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾)

ولم يقل [فارغب إلى ربك]، وكأن الرغبة كلها ينبغي أن تكون إلى الله وحده وفيما عنده، لا إلى غيره كائنا من كان. ومن نظر إلى أن ربه هو مالك كل شيء، ومدبر كل أمر، وقاهر فوق كل أحد؛ عرف أن الرغبة إلى غيره غبن لا عوض له.

ولا أعجبَ ممن يقول له الملك الغني الكريم: سلني وارغب فيما عندي، ويقول له المملوك الفقير الشحيح: تضجرني مسألتك، ولا أضمن لك عطاءً؛ ثم هو بعد ذلك يعدل عن الملك إلى المملوك!

ثم إن الفقير الذي بلغ به الفقر مداه إذا رغب إلى الملك الذي اجتمع له تمام الملك وأقصاه فإنه لا يسأله سؤال المتردد المرتاب، ولكن سؤال العازم المتيقن. ولا يقتصر في سؤاله على اللقمة والرداء، بل يزيد على ذلك ما يليق بالملك العظيم أن يعطيه .

وفي الحديث: «ولكن ليعزم المسألة، وليُعظِم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»..

فارغب إلى ربك وحده، ثم إذا رغبتَ إليه فأعظِم الرغبة..

التين

١٤٤- (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾)

كل شيء حولك ينطق بقدرة الله عليك وعلى الكون بأسره، من تكوينك المتسق المعجز إلى تغير الحوادث أمام ناظريك.. فطفل يشب، وشاب يهرم، وشيخ يذهب عقله.. والمرض والموت لا يفرّقان بين أي منهم.

إن الحياة عجيبة فياضة بالآيات الباهرة والقاهرة التي تدفع دوما إلى التساؤل: كيف يمكن إنكار الغاية من كل ما يجري، أو ادعاء أنه لا يعقبه حساب ولا جزاء؟ كيف ومدبر تلك الحوادث لا تُحدّ قدرته ولا تضاهى حكمته؟

كل شيء حولك يهتف بك: لا سبيل إلى التكذيب بالدين!

العلق

١٤٥- (... وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾)

يقال من معاني الكرم: بذل المنافع، ومن معاني الكريم: النفَّاع، من قولهم: شاة كريمة، إذا كانت غزيرة اللبن لا تحبِسه.

فالكريم يبذل المنافع، لا لسبب ولا رجاء عوض.

فمن أعطاك مالا فقد أكرمك، ولكن أبلغ في الكرم من علَّمك حرفة تكسب بها المال؛ إذ ذاك غمرك كرمه في ساعة، وهذا يغمرك كرمه كل ساعة، فمنفعة الثاني أعظم من منفعة الأول. وهكذا كلما عظمت المنفعة كان كرم المُكرِم عليك أعظم.

وأنت إذا تأمَّلت وجدت أن أعظم المنافع كلها هي منفعة التعليم كما في المثال، وكلما زادت آثار نفع ما علَّمك مُعلِّمك كان إكرامه لك أعظم من إكرام غيره.

وإذا تعرَّف الإنسان إلى ربه تعالى، وجد أنه الكريم الذي أكرمه بالخلق والإيجاد على أتم هيئة ثم وهبه من المنافع ما يلائم تكوينه، ووجد أنه الأكرم الذي ميَّزه بأعظم المنافع وخيرها وهي منفعة التعليم منذ علَّم أباه آدم الأسماء كلها. فهو **(..رَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾) [الانفطار]**، وهو **(..رَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾) [العلق].**

وحيث إن هذا الكرم هو أصل كل كرم ومنتهاه، فإن الله سبحانه هو الكريم على الإطلاق. وحيث إن آثار هذا الكرم تبقى وآثار غيره تفنى، فإنه سبحانه هو الأكرم على الإطلاق؛ فهو أكرم الأكرمين من كل وجه. والله أعلم.

١٤٦- (عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴿٧﴾)

حين يتناسى الإنسان حقيقة جهله الأول، وأن الله سبحانه هو من علَّمه وأنعم عليه بالفهم ووفقه لينفع نفسه وينفع من حوله، يشعر بالاستغناء بما يعلم عن الخضوع لربه ودوام شكره وعبادته.. ليبدأ رحلة الطغيان، ولا يوقفه عن طغيانه سوى نازلة تذكّره بسابق عهده من الجهل والفقر والحاجة كي يرجع إلى أصله.. نازلة تهتف به: أيها الإنسان المسكين.. مهما بلغت معارفك وقدراتك، لا يمكنك الاستغناء عن ربك!

القدر

١٤٧- (سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴿٥﴾)

قال القرطبي رحمه الله: «قال الضحاك: لا يقدر الله في تلك الليلة إلا السلامة، وفي سائر الليالي يقضي بالبلايا والسلامة. وقيل: أي هي سلام، أي ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن ومؤمنة. وكذا قال مجاهد: هي ليلة سالمة، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءا ولا أذى.» اهـ

قلتُ: وصف الله خير الأزمنة وهي ليلة القدر بأنها سلام، ووصف خير البقاع وهي الجنة بأنها دار السلام، وجعل خير التحايا وهي تحية المؤمنين في الدنيا والآخرة هي السلام، وسمى ديننا وهو خير الأديان: دين الإسلام وسماه السلم أيضا.. فما أعظم معنى السلام في ديننا!

نسأل الله أن يفيض علينا وعلى أهلينا وأحبابنا وبلادنا سلاما وسلما وسلامة.. فهو سبحانه السلام، ومنه السلام!

البينة

١٤٨- ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّـهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ... ﴿٥﴾﴾

لم يؤمروا بما يعجزون عن أدائه ولا بما يخالف فِطَرهم ولا عقولهم، بل كان أمره سبحانه لهم بأعظم ما ينفعهم ويطمئن قلوبهم في الدنيا والآخرة.. أمرهم باتباع الملة القيّمة، التي لا باطل فيها ولا عوج. فما أعجب مملوكا فقيرا لا يأمره مالكه إلا بغاية ما ينفعه ويسعده ثم هو بعدُ لا يطيع!

W

١٤٩- ﴿رَّضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ... ﴿٨﴾﴾

لقد رضوا بالله ربًّا في الدنيا فعبدوه وأخلصوا له وأطاعوه، فكافئهم بأن رضي عنهم. وحين يرضى الله عن العبد فإنه يعطيه حتى يرضيه..

فمن رضي بالله ربا فسمع له وأطاع، رضي الله عنه وأرضاه.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير كله في يديك،

فيقول: هل رضيتم؟

فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟

فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟

فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟

فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً) متفق عليه.

فانظر إلى كرمه سبحانه ورحمته مع غناه وعظمته في سؤالهم: «هل رضيتم؟»

سبحانك جل شأنك يارب.. رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا.. فاللهم ارض عنا ومتع قلوبنا ببرد الرضا وسلامه في الدنيا والآخرة.. آمين.

الزلزلة

١٥٠- ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴿٦﴾﴾

يوم ظهور النتيجة النهائية حقا، ستتلاشى الجموع ويتفرق الممتحنون ليرى كل منهم منزلته.. لن يجد المرء حينها رؤساءه الذين تملق لهم بمعصية الله، ولا أصدقائه الذين أرضاهم على حساب دينه، ولا أرباب مصالحه الذين نافقهم زورا وباطلا..

سيتشتتون عنك جميعا فلا تهلك نفسك على أعتابهم!

ويبقى عملك الذي قدمته خالصا لربك.. به توزَن، وعليه تجازى.. فلا يصدنك عنه الصادون.

العاديات

١٥١- ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾

صدق الله تبارك وتعالى..

إننا ننكر العطاء الطويل بمنع مرة..

ونرى العيب اليتيم وسط جموع الميزات..

ونتذكر أننا بكينا مرة وننسى أننا ضحكنا ألف مرة!.

وهكذا الإنسان، يكفر كثيرا ويشكر قليلا..

قال الحسن: «(إن الإنسان لربه لكنود): لوَّام لربه، يعد المصائب وينسى النعم!» اهـ

فاللهم اعف عنا واجعلنا من الشاكرين.

القارعة

١٥٢- (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾)

إذا كان حال الجبال الصلبة الشامخة، التي يُضرَب بها المثل في الثبات والقوة والعظمة والثقل أنها تكون كالصوف المتفرق الذي أوشك أن يبلى من الضعف والخفة يوم القيامة.. فبماذا ينتفع الإنسان يومئذ من تشييد القصور والدور، والتفاخر بالعز والمنعة؟

هذه الجبال تخرّ لله خضوعا وذلا، فما للإنسان الضعيف يأبى إلا الكبر!

التكاثر

١٥٣- (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾)

نتبارى لنرى من صاحب المال الأكثر، والدار الأفخم، والسيارة الأحدث، والزوج الأجمل، والحجة الأقوى، والكتاب الأشهر.. ويلهينا طلب الجديد عن الشكر على القديم، وشهوة الأخذ عن واجب العطاء.. وننسى أننا جميعا راحلون، تاركين خلفنا كل ما ألهانا مهما كان كثيرا، فيا لخداع الدنيا، ويا لجهل الإنسان!

عن عبدالله بن الشخير رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ ألهاكم التكاثر، قال: «يقول ابن آدم، مالي مالي.. وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبستَ فأبليت، أو تصدقتَ فأبقيتَ؟» رواه مسلم.

العصر

١٥٤- (... وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾)

من شأن المؤمنين أن لا ينعزلوا عن الحياة، وأن لا يعملوا بروح فردية.. بل على كل منهم أن يتواصى «يتفاعل» مع غيره بعهد الحق والصبر، وكأن النجاة من الخسران سلسلة رباطها التواصي، والمؤمنون حلقاتها يسلّم بعضهم بعضا، فإذا ارتبطت الحلقات تماسكت السلسلة على أحسن ما يكون، وإذا أفلتت الحلقات الرباط، انقطعت.. فيا كل مؤمن، لا تكن أنت من يقطعها!

الهمزة

١٥٥- (يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾)

جميع أسباب الركون إلى الدنيا يُظهر الموت حقارتها وزيفها.. فلا يتأخر الأجل بمال، ولا حسَب، ولا قوة، ولا شباب، ولا سلطان، ولا منعة.. كلنا سنرحل متجردين عن كل ما خدعنا في دار الفناء.

وصدق الحسن رحمه الله حين قال: «فضح الموت الدنيا، فلم يترك للذة بها فرحا»

اللهم اجعل خير أيامنا يوم نلقاك.

الفيل

١٥٦- (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾)

أحيانا لا يأتيك الاعتبار في صورة خطيب مفوَّه يحدثك بكلمات مسجوعة، بل يكفيك اعتبارا وانبهارا وخشوعا أن تتأمل أحوال الجبابرة وقدر ما أفسدوا وظلموا وانتهكوا ثم تنظر عند نهاياتهم كيف فعل الله بهم!

١٥٧- (وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾)

من تمام إبطال الله سبحانه كيد المتكبرين أنه يهلكهم بما يستصغرون..

أهلك عادًا «الجبارين» بريح.. وأهلك فرعون بممر استهان بتجاوزه.. وأهلك أصحاب الفيل وهو الحيوان العظيم بطير ترميهم بحجارة!

قريش

١٥٨- (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾)

النعم المألوفة من أعظم موجبات الشكر، لأنها تزيد على ابتداء الإنعام بها بأن تصحب الإنسان حتى يألفها..

تأمل كم من نعمة ألفناها ثم لم نُحدث لشكرها عبادة، حتى إذا سُلبت يوما أدركنا مدى فقرنا إلى الله وتقصيرنا في شكره.

١٥٩- (الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾)

الطعام والأمن من أعظم النعم التي يمتن الله بها على البلاد، امتن بهما على قريش، وعاقب القرية العاصية بسلبهما **(... فَأَذَاقَهَا اللَّـهُ لِبَاسَ الجوعِ وَالخَوفِ بِما كانوا يَصنَعونَ ﴿٢١١﴾ [النحل])**

اللهم سلمنا وأعنا على شكر نعمتك.. أطعمنا يا ربنا من جوع وآمنَّا من خوف!

الماعون

١٦٠- (وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾)

قد يُفهم رفضُ المرء نفعَ الناس إذا كان نفعهم سيكلفه عناء أو يضره ولو ظاهريا، لكن الذي لا يتفهم هو أن يرفض نفعهم بطريقة لا تكلفه ولا تضره!

أولئك الذين يبخلون بإعارة غيرهم وعاء سرعان ما سيعود إليهم كما هو، يشبهون كثيرا من يحتكرون معلومة نافعة لن يضرهم نشرها.. من يملكون البشرى ولا يبدون إلا العبوس.. من يفضلون قلع ضروسهم على تمر على ألسنتهم كلمة طيبة!

اللهم لا تجعلنا منهم.

الكوثر

١٦١- (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾)

من الخسران وانقطاع الخير عن الإنسان أن يبغض أهل الصلاح والكرم والشجاعة والسداد ويحقد عليهم، إذ يفوته الخير الذي عندهم ولا يضرهم بغضه؛ فكيف بخسران من جعل بغضه وحقده على من جمع من كل صفات الصلاح والبر أكملها وأجملها وأعظمها؟!

اللهم صل على خير خلقك أجمعين!

الكافرون

١٦٢- (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾)

مسائل العبادة تحتاج قدرا كبيرا من الوضوح، ولا مجال فيها للموارية..

وإننا نرى أهل الباطل يعلنون مفارقتهم للحق، فكيف لا يعلن أهل الحق مفارقتهم للباطل؟!

النصر

١٦٣- ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّـهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾

تخيل حاله صلى الله عليه وسلم وقد أعز الله به الإسلام وأتته الجموع والوفود أفواجا يطلبون الدخول في دينه، ومنذ أعوام سبوه وآذوه وحاصروه وعذبوا أصحابه وأخرجوه!

لا تضعفنك المحن إذا كنتَ تسير على الطريق القويم، فلعل في طيات الأيام منح خفية، وعزٌّ كامن، ونصر مؤزر.

١٦٤- ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّـهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾

عندما تؤدَّى الرسالة، يعود الرسل إلى من بعثهم.. وهكذا بلَّغ خير الرسل صلى الله عليه وسلم رسالة ربه، وتم له أداء الأمانة، فكان هذا إيذانا بعودته إلى الله تعالى.. ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما عن سورة النصر: «نعيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه».

اللهم اجزه عنا خير ما جزيت نبيا عن أمته ورسولا عن رسالته.

المسد

١٦٥- ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾

لا تكن شريكا في الشر والمنكر والفساد مهما كانت مكانة شركائك وغناهم وجمالهم وقربهم من نفسك.. فالشركاء في فعل الشر يشتركون في جزاء ما فعلوا!

والشراكة في الأعمال مركزية بين الأزواج، لما بينهما من قوة الرابطة وعمق التأثير، لهذا كان الدين معيارا رئيسا في الاختيار «فاظفر بذات الدين».. «إذا جاءكم من ترضون دينه..»، لكيلا يكون فساد أحدهما سببا في إفساد الآخر.

فكونوا لأزواجكم شركاء خير.

الإخلاص

١٦٦- (قُلْ هُوَ اللَّـهُ أَحَدٌ ﴿١﴾)

أن تجعل كل حبك ورغبك ورهبك وعملك وافتقارك وشكواك لإله واحد له تمام الكمال والجمال والملك والعظمة والعلم والحكمة والرحمة.. بذلك يجتمع عليك شملك، ويُلمّ شعثك، وتطمئن نفسك، وتسكن روحك.. فلا ترض عن التوحيد بدلا.

الفلق

١٦٧- (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾)

استعن على شرور الأشياء مهما عظمت في نظرك بالذي خلقها وأنشأها أول مرة، فهو مالكها والمقتدر عليها.. وحده من بيده أمانك، ومنه نجاتك، فإذا احتميت بحماه والتجأت إلى كنفه حماك وآواك.

الناس

١٦٨- (مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾)

لا تقعدنك خشيتهم عن القول الحق أو العمل الصالح.. فربك يملكهم وهم لا يملكون شيئا.

يقول الطبري رحمه الله: «وهو ملك جميع الخلق: إنسهم وجنهم، وغير ذلك، إعلاما منه بذلك مَن كان يعظّم الناس تعظيم المؤمنين ربهم أنه ملك من يعظمه، وأن ذلك في مُلكه وسلطانه، تجري عليه قُدرته، وأنه أولى بالتعظيم، وأحقّ بالتعبد له ممن يعظمه، ويُتعبد له، من غيره من الناس.» اهـ

وفي الحديث الصحيح، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يمنعن رجلا هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يقرّب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو يذكّر بعظيم»..

اللهم اهدنا واهد بنا واجعلنا سببا لمن اهتدى..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(تمت بحمد الله)

فهرس الصفحات

مقدمة .....
الفاتحة 02
البقرة 03
آل عمران 04
النساء 07
المائدة 11
الأنعام 15
الأعراف 18
الأنفال 19
التوبة 19
يونس 22
هود 23
يوسف 24
الرعد 25
إبراهيم 27
الحجر 27
النحل 28
الإسراء 29
الكهف 30
مريم 31
طه 31
الأنبياء 32
الحج 32
المؤمنون 33
النور 33
الفرقان 34
الشعراء 35
النمل 35
القصص 35
العنكبوت 36
الروم 36
لقمان 37
السجدة 38
الأحزاب 38
سبأ 39
فاطر 39
يس 40
الصافات 41
ص 42
الزمر 43
غافر 44
الشورى 45

الشورى 46
الزخرف 48
الدخان 48
الجاثية 49
الأحقاف 49
محمد 50
الفتح 50
الحجرات 51
ق 52
الذاريات 52
الطور 53
النجم 53
القمر 54
الرحمن 54
الواقعة 55
الحديد 65
المجادلة 65
الحشر 57
الممتحنة 58
الصف 60
الجمعة 60
المنافقون 61
التغابن 61
الطلاق 61
التحريم 63
الملك 63
القلم 63
الحاقة 64
المعارج 64
نوح 64
الجن 65
المزمل 65
المدثر 66
القيامة 66
الانسان 66
المرسلات 67
النبأ 67
النازعات 67
عبس 68
التكوير 68
الانفطار 68
المطففين 69
الانشقاق 69
البروج 70
الطارق 70

الأعلى 71
الغاشية 71
الفجر 72
البلد 72
الشمس 73
الليل 73
الضحى 74
الشرح 74
التين 75
العلق 75
القدر 76
البينة 77
الزلزلة 78
العاديات 78
القارعة 79
التكاثر 79
العصر 80
الهمزة 80
الفيل 81
قريش 81
الماعون 82
الكوثر 82
الكافرون 82
النصر 83
المسد 83
الإخلاص 84
الفلق 84
الناس 84